بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ظِلال الرفقة

صحابة رسول الله ﷺ في مرآة النفس والتاريخ

إعداد: د. محمد عمارة

سِيَرٌ إنسانيّة من الصفّ الثاني من أصحاب رسول الله ﷺ

قال رسول الله ﷺ: "أصحابي كالنجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم"

حديث اشتهر على ألسنة العلماء في فضل الصحابة عمومًا، وإن ناقش المحدّثون سنده وضعّفه أكثرهم، لكن معناه صحيح شهدت له نصوص أخرى كثيرة في فضل الصحبة

مقدمة الكتاب

ليس هذا كتابًا في السيرة بالمعنى الذي ألفناه، ولا هو ديوان مناقب يُسرد فيه الفضل سردًا، وإنما هو محاولة لرؤية هؤلاء الرجال من الداخل: نسبهم ونشأتهم، لحظة اهتدائهم، أحاديثهم مع النبي ﷺ ومواقفهم الخالدة، ثم لحظة رحيلهم الأخيرة. كل هذا موثّقًا من كتب السيرة والطبقات، لكن مصوغًا بروح تحاول أن تشرّح الشخصية من منابع تكوينها النفسي، وأن تلتقط صراعها الداخلي في لحظات الحسم، وأن تضعها في مسرح التاريخ الكبير الذي تتحول فيه المعركة أو الكلمة إلى مشهد له وزنه الكوني. وحيث وُجدت معلومات موثقة إضافية عن الصفة الجسدية، أو الغزوات كاملة، أو رواية الحديث وتلاميذه، أو المدرسة الفقهية، أو الكرامات، أُضيفت في موضعها؛ وحيث غابت، لم نتكلّف ذكرها.

اخترنا أن نستثني من هذا الكتاب العشرة المبشرين بالجنة (أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، طلحة بن عبيد الله، الزبير بن العوام، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، سعيد بن زيد، أبو عبيدة بن الجراح)، لا تصغيرًا لشأنهم، بل لأن سيرتهم أُشبعت درسًا، ولأن في الصف الثاني والثالث من الصحابة كنوزًا نفسية وإنسانية لم تُستقصَ بما يكفي.

أما تنظيم الكتاب، فقد جمعنا فيه بين طبقتين: تصنيف الصحابة إلى ثلاثة أبواب بحسب صفتهم التاريخية (المهاجرون والسابقون الأولون، ثم الأنصار، ثم مُسلمة الفتح ومتأخرو الإسلام والوافدون)، ثم ترتيبهم داخل كل باب من الأهم إلى ما يليه في التأثير التاريخي الموثّق: سعة الأثر العلمي أو الفقهي أو القرآني، أو حجم الدور العسكري أو السياسي، أو عمق الأثر الرمزي والحضاري الممتد بعدهم. ولا بد من توضيح أمين هنا: هذا الترتيب اجتهاد تحريري لا حكم شرعي، إذ لم يرد نص قرآني أو نبوي يُفاضل بين آحاد الصحابة خارج من ورد فيهم نص صريح كالعشرة المبشرين بالجنة، وقد اختلف العلماء أنفسهم في موازين التفضيل بينهم. فليكن هذا الترتيب دعوة للتأمل في تنوّع أوجه الأثر، لا حكمًا قاطعًا في قيمة أحد عند الله، فالله وحده يعلم منازل عباده الصادقين.

هذا كتاب اجتهاد أدبي مبني على وقائع صحيحة في أصلها الوارد في كتب السيرة والطبقات والحديث، وقد حرصنا على الدقة التاريخية في الأنساب والوفيات والأحاديث، وإن تحرّرت اللغة أحيانًا في تخيل الانفعال الداخلي كما يفعل كل كاتب سيرة أدبية.

خُطّة الكتاب

الباب الأول: المهاجرون والسابقون الأولون

من أسلم في مكة أو التحق بركب الإسلام مبكرًا من غير أهل المدينة، ثم هاجر أو عاش في كنف النبي ﷺ قبل الفتح.

1. عبد الله بن مسعود — الظل الصغير الذي حمل القرآن

2. عبد الله بن عباس — ترجمان القرآن وحبر الأمة

3. عبد الله بن عمر — الذي اقتفى أثر النبي ﷺ خطوة بخطوة

4. حمزة بن عبد المطلب — الغضبة التي صارت إيمانًا

5. جعفر بن أبي طالب — الطائر بجناحين في الجنة

6. زيد بن حارثة — الصحابي الذي سمّاه القرآن باسمه

7. بلال بن رباح — الصوت الذي كسر السوط

8. سلمان الفارسي — الباحث عن الحقيقة في أربع قارات

9. عمار بن ياسر — ابن أول شهيدين في الإسلام

10. عبد الله بن عمرو بن العاص — صاحب الصحيفة الصادقة

11. أبو ذر الغفاري — الزاهد الذي أقلق الملوك

12. مصعب بن عمير — فتى مكة الذي باع الحرير بالخشونة

13. حاطب بن أبي بلتعة — صاحب الرسالة التي غفرها بدر

14. صهيب الرومي — الذي رَبِح بيعه مع الله

15. خباب بن الأرت — الحداد الذي اكتوى ظهره بالنار

16. المقداد بن الأسود — صاحب خطبة بدر الخالدة

17. زيد بن الخطاب — الذي سبق أخاه عمر مرّتين

18. عثمان بن مظعون — الزاهد الذي رفض الرهبانية

19. عُمير بن وهب — الذي جاء ليقتل النبي ﷺ فأسلم على يديه

20. الطفيل بن عمرو الدوسي — الذي أراد أن يصمّ أذنيه عن القرآن فهداه

21. عبد الله بن حذافة السهمي — الذي بكى ليتمنى مئة موتة في سبيل الله

22. سلمة بن الأكوع — خير رجالة المسلمين

23. جُليبيب — الذي لا نسب له فكان منه النبي ﷺ وكان منه

الباب الثاني: الأنصار

أهل المدينة من الأوس والخزرج، الذين آووا النبي ﷺ وأصحابه ونصروهم، فسمّاهم الله في كتابه الأنصار.

1. أنس بن مالك — خادم رسول الله ﷺ عشر سنين

2. زيد بن ثابت — كاتب الوحي وجامع القرآن

3. سعد بن معاذ — الذي اهتزّ العرش لموته

4. معاذ بن جبل — أعلم الأمة بالحلال والحرام

5. أُبيّ بن كعب — الذي أمر الله نبيّه أن يقرأ عليه القرآن

6. جابر بن عبد الله الأنصاري — راوي حجة الوداع وابن شهيد أُحُد

7. أبو أيوب الأنصاري — مضيف الهجرة وحارس أسوار القسطنطينية

8. حسّان بن ثابت — شاعر رسول الله ﷺ

9. سعد بن عبادة — سيد الخزرج وأكرم أهل المدينة

10. أبو سعيد الخدري — ابن شهيد أُحُد الذي صار مرجعًا للفتوى

11. أبو طلحة الأنصاري — الذي تصدّق بأحبّ أمواله إليه

12. عبد الله بن رواحة — شاعر استقبل الموت بقصيدة

13. كعب بن مالك — صاحب التوبة التي ضاقت لها الأرض بما رحبت

14. سهل بن سعد الساعدي — آخر من بقي بالمدينة من الصحابة

15. أسيد بن حضير — الذي استمعت الملائكة لقرآنه

16. أبو دُجانة — صاحب العصابة الحمراء الذي درع النبي ﷺ بظهره

17. البراء بن مالك — الذي قذف بنفسه فوق سور حديقة الموت

18. عمرو بن الجموح — الشيخ الأعرج الذي وطئ الجنة بعرجته

19. حنظلة بن أبي عامر — غسيل الملائكة

20. عاصم بن ثابت — حِمِي الدَّبْر

21. خُبيب بن عدي وزيد بن الدثنة — أسيرا الرجيع اللذان علّما قريشًا معنى الحب

22. ثابت بن قيس — خطيب الأنصار الذي خشي أن يكون من أهل النار

23. قتادة بن النعمان — صاحب العين التي ردّها النبي ﷺ بيده

24. معاذ ومعوّذ ابنا عفراء — الغلامان اللذان أرديا أبا جهل

25. عُمير بن الحُمام — الذي رمى تمراته ركضًا إلى الجنة

الباب الثالث: مُسلمة الفتح ومتأخرو الإسلام والوافدون

من أسلم متأخرًا قرب فتح مكة أو بعده، أو قدم في وفود القبائل، أو اعتنق الإسلام من أهل الكتاب في المدينة.

1. خالد بن الوليد — من سيف على الرسول إلى سيف الله المسلول

2. عمرو بن العاص — الداهية بين الدنيا والفتح

3. أبو هريرة — أكثر الصحابة رواية للحديث

4. أبو موسى الأشعري — صاحب مزمار آل داود

5. النعمان بن مقرن — قائد نهاوند الذي رأى النصر ولم يشهد فرحته

6. عبد الله بن سلام — الحبر الذي شهد له القرآن

7. كعب بن زهير — صاحب البردة النبوية

8. حكيم بن حزام — الذي لم يسجد لصنم قط ولم يسأل أحدًا شيئًا

9. صفوان بن أمية — الذي فتح الإسلام قلبه بالعطاء لا بالسيف

10. أبو سفيان بن الحارث — ابن عم النبي ﷺ الذي هجاه ثم صار أحبّ الناس إليه

11. عروة بن مسعود الثقفي — صاحب يس ثانية

12. زيد بن سَعنة — الحبر الذي اختبر صبر النبي ﷺ فوجده كما وصفته كتبه

13. دحية الكلبي — الذي كان جبريل يأتي على صورته

الباب الأول: المهاجرون والسابقون الأولون

من أسلم في مكة أو التحق بركب الإسلام مبكرًا من غير أهل المدينة، ثم هاجر أو عاش في كنف النبي ﷺ قبل الفتح.

الفصل الأول

عبد الله بن مسعود

الظل الصغير الذي حمل القرآن

النسب والنشأة

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهُذلي، من قبيلة هُذيل الحليفة لقريش، وكانت أمه أم عبد معروفة أيضًا حتى نُسب إليها أحيانًا فقيل "ابن أم عبد". نشأ فقيرًا نحيل الجسم قصير القامة، يرعى غنمًا لعقبة بن أبي مُعيط، أحد صناديد قريش المعادين للدعوة لاحقًا، فكانت المفارقة أن يصير هذا الراعي الصغير النحيل حامل سرّ القرآن الأول.

قصة الهداية والإسلام

كان عبد الله بن مسعود من السابقين الأولين، يُعدّ سادس من أسلم بحسب بعض الروايات. ولما اشتد أذى قريش على المسلمين ومنعوهم من الجهر بالقرآن، تجرأ ابن مسعود على ما لم يجرؤ عليه غيره: قصد المسجد الحرام في وضح النهار، ووقف عند المقام، ورفع صوته بقراءة سورة الرحمن أمام صناديد قريش. حذّره أصحابه من بطشهم لأنه لا عشيرة تحميه، فقال: دعوني، فإن الله سيمنعني. فما إن سمعوه حتى انهالوا عليه ضربًا حتى أدمَوا وجهه، فعاد إلى أصحابه مُبتسمًا، وقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأعودنّ إليهم غدًا بمثلها.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

لازم عبد الله بن مسعود النبي ﷺ ملازمة الظل، يحمل نعليه، ويسكب له وضوءه، ويوقظه، حتى قال عنه أصحابه: كان أقرب الناس هديًا وسمتًا ودلًّا برسول الله ﷺ. وذات يوم هبّت ريح فكشفت عن ساقيه الدقيقتين النحيلتين وهو يتسلق شجرة، فضحك بعض الصحابة من دقّتهما، فقال النبي ﷺ منكرًا عليهم: "أتضحكون من دقة ساقيه؟ والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أُحُد."

وقد شهد النبي ﷺ لعلمه بالقرآن شهادة لم تتكرر لأحد بهذا الوضوح، فقال: "من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد"، وقال في حديث آخر يوصي أصحابه بأخذ القرآن عن أربعة، فبدأ بذكره:

"خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود..." فكان بذلك أحد الأركان الأربعة التي أرسى عليها النبي ﷺ نقل القرآن وإقراءه للأمة.

تولى عبد الله بن مسعود لاحقًا بيت مال الكوفة وتعليم أهلها، فنشأ فيها جيل كامل من الفقهاء والقرّاء على يديه، حتى صار لمدرسته في الكوفة أثر بالغ في تاريخ الفقه الإسلامي كله.

روايته للحديث وتلاميذه

روى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة بحسب إحصاء المتأخرين من علماء الحديث، وتخرّج على يديه في الكوفة جيل كامل من كبار التابعين، وعلى رأسهم علقمة بن قيس وإبراهيم النخعي، اللذان صارا لاحقًا من أهم روافد الفقه الذي قام عليه المذهب الحنفي فيما بعد.

مدرسته الفقهية وآراؤه

أسّس ابن مسعود في الكوفة مدرسة فقهية قائمة على الرأي والقياس إلى جانب النص، عُرفت بعده بـ"مدرسة الرأي" أو "مدرسة الكوفة"، وصار تلاميذها من بعده من كبار أئمة الفقه الإسلامي في العراق.

الوفاة

توفي عبد الله بن مسعود في المدينة المنورة سنة اثنتين أو ثلاث وثلاثين للهجرة (652م تقريبًا)، بعد أن عاد إليها من الكوفة، وزاره عثمان بن عفان في مرضه الأخير وعرض عليه مالًا من بيت المال فرفضه، ودُفن بالبقيع.

الفصل الثاني

عبد الله بن عباس

ترجمان القرآن وحبر الأمة

النسب والنشأة

هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي، ابن عمّ النبي ﷺ، وُلد قبل الهجرة بسنوات قليلة، فكان في الثالثة عشرة تقريبًا عند وفاة النبي ﷺ، صغيرًا في السن لكنه حمل من العلم ما لم يحمله كثير ممن عاصروا الدعوة منذ بدايتها.

قصة الهداية والإسلام

نشأ عبد الله بن عباس مسلمًا في بيت هاشمي قريب من النبي ﷺ، وكان في صباه يلازم مجالسه، يُعدّ له ماء الوضوء ويختبئ خلف الباب يترقب كل كلمة يقولها.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

احتضنه النبي ﷺ يومًا ودعا له بدعوة غيّرت مسار حياته كلها: "اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل"، فاستجاب الله تلك الدعوة استجابة مبهرة، حتى صار عبد الله بن عباس أعظم مفسّري الصحابة للقرآن الكريم على الإطلاق، ولُقّب بـ"ترجمان القرآن" و"حبر الأمة" و"البحر" لسعة علمه.

وقد كان عمر بن الخطاب، رغم صغر سنّ ابن عباس، يُدخله في مجالس كبار الصحابة من أهل بدر، فتعجّب بعضهم من ذلك، فاختبر عمر علمه أمامهم بسؤاله عن تفسير آية من سورة النصر، فأجاب ابن عباس إجابة أذهلت الحاضرين جميعًا بعمقها ودقتها، فسكت من كان يعترض على حضوره مجالسهم.

روايته للحديث وتلاميذه

روى ابن عباس عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وتخرّجت على يديه في مكة مدرسة تفسيرية كاملة عُرفت بـ"مدرسة ابن عباس"، ضمّت كبار المفسرين من التابعين مثل مجاهد بن جبر وسعيد بن جبير وعكرمة مولاه وعطاء بن أبي رباح، وهم من شكّلوا لاحقًا العمود الفقري لعلم التفسير الإسلامي كله.

مدرسته الفقهية وآراؤه

عُرفت مدرسة ابن عباس التفسيرية بمنهج يجمع بين تفسير القرآن بالقرآن، وبالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بلغة العرب وأشعارها عند الحاجة، وهو منهج صار أساسًا اعتمد عليه أغلب من جاء بعدهم من المفسرين.

الوفاة

توفي عبد الله بن عباس في الطائف سنة ثمان وستين للهجرة تقريبًا (687م)، بعد أن فقد بصره في أواخر حياته، تاركًا للأمة إرثًا تفسيريًّا وفقهيًّا لا يزال يُرجع إليه إلى اليوم في كل بلاد الإسلام.

الفصل الثالث

عبد الله بن عمر

الذي اقتفى أثر الذي بخطوة

النسب والنشأة

هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أسلم صغيرًا مع أبيه قبل الهجرة، فنشأ في بيت عرف الإسلام منذ طفولته المبكرة.

قصة الهداية والإسلام

حاول عبد الله بن عمر أن يلحق ببدر وهو صبي فرُدّ لصغر سنه، ثم أُحُد فرُدّ أيضًا، حتى أُجيز أخيرًا في الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة، تمامًا كما حدث مع زيد بن ثابت في العام نفسه تقريبًا.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

عُرف عبد الله بن عمر باتباعه سنة النبي ﷺ اتباعًا حرفيًّا دقيقًا نادر المثال: كان يتتبع خطى النبي ﷺ في أسفاره وحجّه، فينزل حيث نزل، ويصلي حيث صلى، ويربط راحلته في الموضع نفسه الذي ربط فيه النبي ﷺ راحلته، حرصًا منه ألا يفوته من هديه شيء ولو بدا صغيرًا لغيره.

نُقل عنه أن أخته حفصة أم المؤمنين أخبرته أن النبي ﷺ قال: "نِعمَ الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل"، فما ترك عبد الله بعدها قيام الليل، حريصًا على ألا يُقال فيه إنه قصّر عن وصف نبوي كان يمكن أن يكون كاملًا فيه.

عاش عبد الله بن عمر عمرًا طويلًا شهد فيه الفتنة الكبرى بين الصحابة أنفسهم، فاعتزلها تمامًا ولم ينخرط في شيء من قتالها، إذ آثر السلامة والزهد في الفتنة على الانحياز لأي طرف، وهو موقف عُدّ من أوضح علامات حكمته وورعه.

روايته للحديث وتلاميذه

روى عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وهو ثاني أكثر الصحابة رواية بعد أبي هريرة، واعتمد عليه تلميذه مولاه نافع اعتمادًا كبيرًا، حتى صارت سلسلة "مالك عن نافع عن ابن عمر" توصف عند المحدثين بـ"السلسلة الذهبية" لشدة توثقها.

الوفاة

توفي عبد الله بن عمر في مكة المكرمة سنة ثلاث وسبعين للهجرة تقريبًا (693م)، بعد عمر مديد شهد فيه معظم تاريخ صدر الإسلام، آخر كبار الصحابة الذين عاصروا تلك الحقبة كاملة.

الفصل الرابع

حمزة بن عبد المطلب

الغضبة التي صارت إيمانًا

النسب والنشأة

هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، عمّ النبي ﷺ الشقيق لأبيه، وأمه هالة بنت وهيب بن عبد مناف المخزومية، وهي ابنة عم آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ، فكان حمزة وابن أخيه محمد قريبين من جهتين: النسب والرضاع معًا. فقد أرضعتهما معًا، ومعهما أبو سلمة بن عبد الأسد، مولاةٌ تُدعى ثويبة، أعتقها عمه أبو لهب فرحًا بمولد النبي ﷺ، فصار حمزة أخا النبي من الرضاعة، وكان يكبره بأعوام قليلة، حتى نشآ معًا كأخوين متقاربين لا كعمّ وابن أخ.

عُرف حمزة في مكة بشيئين: أنه أشد فتيانها بأسًا في الصيد والقتال، وأنه أعزّهم اعتزازًا بشرف قريش الذي لا يُمسّ.

قصة الهداية والإسلام

في السنة الثانية من البعثة تقريبًا، عاد حمزة من رحلة صيد، قوسه على كتفه، فأخبرته مولاة أن أبا جهل اعترض محمدًا ﷺ عند الصفا وسبّه وآذاه وهو صامت. لم يكن حمزة مؤمنًا بعد، لكن غيرته على دم قريبه اشتعلت، فمضى إلى المسجد ووجد أبا جهل جالسًا بين أشراف قريش، فضربه بقوسه على رأسه ضربة شجّته، وقال: "أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فرُدَّ عليّ ذلك إن استطعت." أعلن إسلامه في تلك اللحظة بصيغة التحدي لا اليقين، ثم بقي عليه بعد أن هدأت نوبة الغضب، حتى صار أحد أعمدة الإسلام الأولى وأشد حُماته بأسًا.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

قاد حمزة أول سرية في تاريخ الإسلام، سرية سيف البحر، لاعتراض قافلة لقريش، وكانت أول لواء يُعقد في الإسلام. وفي بدر، كان أحد أبطال المبارزة الثلاثية الشهيرة التي افتتحت المعركة: خرج من المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد، فبرز إليهم من المسلمين حمزة وعلي بن أبي طالب وعُبيدة بن الحارث. قتل علي الوليد في لحظات، وقتل حمزة شيبة بضربة واحدة حاسمة، معتمرًا ريشة نعامة يتميّز بها في ساحة

الوغى، أما عُبيدة فتبادل الضربات مع عتبة حتى أثخنه جرحًا، فانقضّ عليه حمزة وعلي معًا وأجهزا على عتبة لينقذا صاحبهما، وإن كان عُبيدة قد فارق الحياة متأثرًا بجراحه بعد أيام قليلة، أول شهيد يُدفن من المهاجرين على أرض بدر.

لكن حمزة، رغم كل هذا البأس المؤمن، ظل يحمل بين جوانحه بقايا من رجل الجاهلية القديم لم تُمحَ دفعة واحدة. يُروى أنه ثمِل ذات ليلة، في زمن كان الخمر لا يزال مباحًا فيه قبل تحريمه، ودخل على إبل لعلي بن أبي طالب كان قد أعدّها لوليمة زفافه، فبقر بطونها وأخذ من أكبادها، وهو سكران لا يعي. فلما جاءه النبي ﷺ ومعه زيد بن حارثة يعاتبانه، رفع حمزة رأسه بعينين محتقنتين بالسكر والغضب وقال في وقاحة الثَّمِل: "وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟" فأدرك النبي ﷺ أن الرجل ليس في حال تحتمل عتابًا، فانصرف عنه في هدوء دون مواجهة. تكشف هذه الحادثة الصغيرة، أكثر من أي بطولة، أن إيمان حمزة العميق لم يمحُ في ليلة واحدة عقودًا من عنفوان الجاهلية، وأن الطريق من الغضبة الأولى إلى الاستقامة الكاملة كان طريقًا طويلًا يتخلله السقوط والنهوض، كحال كل نفس بشرية صادقة.

أما أعظم ما قيل فيه فحديث النبي ﷺ الصريح: "سيد الشهداء يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب"، ولُقّب أيضًا بـ"أسد الله وأسد رسوله".

وفي أُحُد، حين اقترب منه وحشي بن حرب، العبد الذي وعده سيده جبير بن مطعم بالحرية إن قتل حمزة ثأرًا لعمه طُعيمة بن عدي المقتول يوم بدر، تتبّعه وحشي بعينيه طويلًا قبل أن يقذفه، وقد وصف تلك اللحظة بنفسه لاحقًا فقال: "فرصدته حتى مرّ بي، فاختبأت له بحجر وشجرة، فلما دنا مني هززتُ حربتي حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه فوقعت في ثنّته حتى خرجت من بين رجليه." رماه من بعيد بحيلة الصياد لا بشجاعة المبارز، فأردته قتيلًا، ثم مثّلت به هند بنت عتبة — التي فقدت أباها بيد حمزة يوم بدر — تمثيلًا فظيعًا، فبقرت بطنه ومثّلت بجثته انتقامًا لم يشفه القتل وحده.

حين رأى النبي ﷺ جثمان عمّه على تلك الحال، وقف طويلًا ثم قال: "لن أُصاب بمثلك أبدًا، ما وقفت موقفًا قط أغيظ إليّ من هذا الموقف." وهمّ أن يمثّل بسبعين من المشركين انتقامًا، فنزل قوله تعالى: "وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ"، فكفّ النبي ﷺ عن المثلة.

الوفاة

استُشهد حمزة بن عبد المطلب في غزوة أُحُد سنة ثلاث للهجرة (625م)، ودُفن في أرض المعركة إلى جوار مصعب بن عمير، وبقي قبره مزارًا معروفًا إلى اليوم عند سفح جبل أُحُد.

الفصل الخامس

جعفر بن أبي طالب

الطائر بجناحين في الجنة

النسب والنشأة

هو جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، ابن عمّ النبي ﷺ، وأخو علي بن أبي طالب الشقيق لأبيه وأمه، فأمهما فاطمة بنت أسد، وكان جعفر أكبر من علي بعشر سنين، وأقرب سنًّا إلى النبي ﷺ نفسه. في سنوات القحط التي أضنت أبا طالب، تقاسم النبي ﷺ وعمّه العباس عبء أبنائه: فأخذ النبي ﷺ عليًّا يربيه في بيته، وأخذ العباس جعفر، فنشأ جعفر في كنف عمّه الثري بعيدًا عن بيت أبيه المُعسِر، لكنه ظل قريبًا من محمد ﷺ قربًا لم تُفسده المسافة.

عُرف جعفر بفصاحة اللسان وجمال الطلعة، حتى قيل إنه أشبه الناس بالنبي ﷺ خَلقًا وخُلقًا.

قصة الهداية والإسلام

أسلم جعفر في وقت مبكر، بعد أخيه علي بقليل، وأسلمت معه زوجته أسماء بنت عُميس الخثعمية، فكانا من أوائل البيوت التي اجتمع فيها الزوجان على الإيمان معًا. ولما اشتد أذى قريش على ضعفاء المسلمين، كان جعفر ممن هاجروا الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثم عاد ليقود الهجرة الثانية إليها بنفسه، متحملًا مسؤولية الجماعة المهاجرة كلها.

حين أرسلت قريش وفدًا برئاسة عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلى النجاشي، ملك الحبشة، يطالبانه بتسليم المهاجرين، وقف جعفر أمام الملك خطيبًا باسم المسلمين، فقال كلمات صارت من أخلد ما نُطق به دفاعًا عن الإسلام: "أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش... حتى بعث الله إلينا رسولًا منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده... وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم." ثم تلا على مسامعه شيئًا من صدر سورة مريم، فبكى النجاشي حتى اخضلّت لحيته، وبكى أساقفته، ورفض تسليم المهاجرين، وردّ الوفد القرشي خائبًا.

بقي جعفر في أرض الحبشة قرابة خمس عشرة سنة، بعيدًا عن مسرح الأحداث الكبرى في مكة والمدينة، حتى عاد أخيرًا في السنة السابعة للهجرة، تحديدًا أيام فتح خيبر. فلما رآه النبي ﷺ مقبلًا، قام إليه فرحًا واحتضنه

وقبّله بين عينيه، ثم قال كلمته التي تختصر عظم ذلك اللقاء: "لا أدري بأيهما أنا أشد فرحًا: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟"

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة، وبعد استشهاد القائد الأول زيد بن حارثة، أخذ جعفر الراية بيمينه، فاندفع نحو صفوف الروم لا يتراجع خطوة، حتى ضُربت يمينه فسقطت، فحمل الراية بشماله، فضُربت شماله أيضًا فسقطت، فما كان منه إلا أن احتضن الراية بعضديه المقطوعين، يضمها إلى صدره حتى استُشهد، ووُجد في جسده بضع وتسعون جراحة، كلها في مقدّم جسده، ولم يكن فيه جرح واحد من الخلف، شهادة صامتة على أنه ما أدار ظهره للمعركة لحظة واحدة.

أخبر النبي ﷺ أصحابه بمقتله قبل أن يصل الخبر من ميدان القتال، وبكى، ثم قال معزيًا أهل بيته: "إن الله أبدل جعفرًا بيديه جناحين يطير بهما في الجنة"، ومن هنا جاء لقباه الخالدان: "جعفر الطيّار" و"ذو الجناحين"، وهما لقبان لا يشاركه فيهما أحد من الصحابة.

ولم يكتفِ النبي ﷺ بالتعزية، بل بادر إلى بيت جعفر بنفسه ليواشي أسماء وأبناءها الصغار، ومسح على رؤوسهم، ثم التفت إلى أصحابه وقال كلمة صارت سُنّة متبعة إلى اليوم في كل بيت يصيبه فقد: "اصنعوا لآل جعفر طعامًا، فإنه قد أتاهم أمر شغلهم"، فكان أول من سنّ للمسلمين أن يبادر الجيران والأقارب بإطعام أهل الميت بدل أن ينتظروا منهم صنع الطعام لضيوف العزاء، تخفيفًا عنهم في ساعة لا تحتمل عندهم غير الحزن.

الوفاة

استُشهد جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة (629م) في أطراف الشام، ودُفن هناك في أرض المعركة، وبقي قبره في مؤتة بالأردن مزارًا معروفًا إلى اليوم.

الفصل السادس

زيد بن حارثة

الصحابي الذي سماه القرآن باسمه

النسب والنشأة

هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، من قبيلة كلب في شمال الجزيرة العربية. سُبي وهو صبي صغير في غارة قبلية، وتنقّل بين الأيدي حتى اشترته خديجة بنت خويلد، فوهبته لزوجها محمد ﷺ قبل البعثة، فأحسن إليه إحسانًا غيّر مجرى حياته كلها.

قصة الهداية والإسلام

بحث والده حارثة عن ابنه المفقود سنوات طويلة، حتى عرف مكانه، فقصد مكة مع أخي زيد يحملان فداءً يريدان به استرداده. خيّره النبي ﷺ بنفسه: إن شئتَ فاذهب مع أبيك، وإن شئتَ فابقَ عندي. فاختار زيد، بلا تردد، البقاء مع محمد ﷺ على أهله ودمه، وقال: والله ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا. تأثر النبي ﷺ بهذا الاختيار تأثرًا بالغًا، فأخذ بيده إلى الكعبة وأعلن أمام الملأ: "اشهدوا أن زيدًا ابني، يرثني وأرثه"، فعُرف بعدها زمنًا بـ"زيد بن محمد"، حتى نزل القرآن لاحقًا بإبطال نسبة التبني، فقال تعالى: "ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ"، فعاد يُعرف باسمه الأصلي: زيد بن حارثة.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

كان زيد من أوائل من أسلم، بل يُعدّ من أوائل الرجال إسلامًا بعد خديجة وعلي. وقد أثنى عليه النبي ﷺ بقوله: "زيد بن حارثة كان من أحبّ الناس إليّ." وقاد النبي ﷺ عدة سرايا وأعطاه رايات القيادة أكثر من مرة، ثقة منه بحنكته العسكرية رغم أصله المسبي الذي لم يكن يحمل شرف نسب قبلي يُعتدّ به عند العرب، وفي ذلك تكريس عملي لمبدأ المساواة الذي جاء به الإسلام. وهو الصحابي الوحيد الذي ورد اسمه صراحةً في القرآن الكريم، في سورة الأحزاب (الآية 37).

وفي غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة، اختاره النبي ﷺ ليكون قائد الجيش الأول، قبل جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، فتقدم يقاتل حتى أثخنته رماح الروم من كل جانب، فسقط شهيدًا أول القادة الثلاثة الذين استُشهدوا في تلك المعركة الفاصلة، فاتحًا بدمه الطريق أمام جعفر الذي حمل الراية من بعده.

الصفة الجسدية

كان زيد أسمر اللون قصيرًا، وقد أثار تفاوت لونه عن لون ابنه أسامة أحيانًا تساؤل بعض من لا يعرفهما، حتى إن رجلًا شكّك يومًا في نسب أسامة لأبيه لتفاوت اللون بينهما، فسُرّ النبي ﷺ حين نظر المُجزِّز المُدلجي (وهو رجل معروف عند العرب بعلم القافة وتتبع الشبه من آثار الأقدام) إلى قدمي زيد وأسامة وهما نائمان مغطاة رؤوسهما، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فأدخل ذلك السرور على النبي ﷺ ردًّا عمليًّا على من شكّك.

غزواته ومشاهده

قاد زيد عدة سرايا بنفسه بثقة النبي ﷺ فيه: سرية القردة، وسرية وادي القرى، وسرية حسمى، إضافة إلى مشاركته في بدر وأُحُد والخندق، قبل أن يُختم مشواره العسكري بقيادته الأولى في مؤتة.

الوفاة

استُشهد زيد بن حارثة في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة (629م)، ودُفن في أرض المعركة بمؤتة، إلى جوار جعفر بن أبي طالب الذي شاركه القيادة في تلك الساعة الأخيرة.

الفصل السابع

بلال بن رباح

الصوت الذي كسر السوط

النسب والنشأة

هو بلال بن رباح، وأمه حَمامة، وُلد عبدًا في مكة، لا يُنسب إلى قبيلة عربية معروفة كما يُنسب الأشراف، إذ كان أصله من الحبشة. نشأ في رقّ أمية بن خلف الجُمحي، أحد صناديد قريش، وترعرع على مضض العبودية وقسوتها، حتى صار صوته وحده — لا نسبه ولا ماله — ما ميّزه بين الناس.

قصة الهداية والإسلام

كان بلال من السابقين الأولين إلى الإسلام، فلما علم سيده أمية بن خلف بإسلامه، أخذ يعذبه أشد العذاب: كان يخرجه في الظهيرة إلى الرمضاء المحرقة، ويطرحه على ظهره، ويضع على صدره صخرة عظيمة، ويقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. وبلال، تحت وطأة الصخرة والرمضاء، لا يزيد على أن يردد كلمة واحدة: "أحد، أحد"، إعلانًا بأن الله واحد لا شريك له، حتى مرّ به أبو بكر الصديق وهو على تلك الحال، فاشتراه من سيده وأعتقه لوجه الله.

ولم يكن عذاب بلال وأمثاله من ضعفاء المؤمنين نهاية الأمر، بل امتدّ أثره إلى مجلس النبي ﷺ نفسه: إذ طلب صناديد قريش من النبي ﷺ أن يطرد من مجلسه فقراء المسلمين كبلال وعمار بن ياسر وصهيب وخبّاب، حتى يجلسوا إليه ويسمعوا كلامه دون أن يجالسوا من يرونهم أرقّاء لا شرف لهم، فتردّد النبي ﷺ لحظة رجاء هدايتهم، فنزل قول الله تعالى حاسمًا: "وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ"، فعلم أن قيمة الإنسان عند الله بصدق قلبه لا بنسبه ولا بحرّيته، وثبت بلال وصحبه في مجلس النبوة الذي حاول الكبراء إخراجهم منه.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

بعد الهجرة، ولمّا شُرع الأذان، اختاره النبي ﷺ ليكون أول مؤذّن في الإسلام لجمال صوته وحسن نبرته، وكان يقول له: "يا بلال، أرحنا بالصلاة"، أي: نادِ للصلاة فأرحنا بها.

ويوم فتح مكة، صعد بلال فوق سطح الكعبة نفسها، وأذّن للصلاة بصوته العالي، فسمعه من كان بالأمس أشراف قريش الذين استعبدوه واحتقروا أصله، فتمتم بعضهم بكلام يستنكر أن يعلو "عبد" فوق البيت الحرام، فنزل قول الله تعالى مؤكدًا أن الكرامة بالتقوى لا بالنسب: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ."

ومن أجمل ما رُوِي من حواره مع النبي ﷺ، أنه سأله ذات فجر: "يا بلال، حدّثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دَفّ نعليك بين يديّ في الجنة"، فأجابه بلال: "ما عملت عملًا أرجى عندي من أني لا أتطهر طهورًا في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كُتب لي أن أصلي."

بعد وفاة النبي ﷺ، امتنع بلال عن الأذان حزنًا شديدًا، وانتقل إلى الشام مجاهدًا، ولم يؤذّن بعدها إلا مرة واحدة، حين زار عمر بن الخطاب بلاد الشام وطلب منه أن يؤذّن كما كان يؤذّن للنبي ﷺ، فلما رفع صوته بالأذان، بكى الصحابة الحاضرون بكاءً شديدًا حتى بلّت دموعهم لحاهم، تذكّروا به عهد النبوة كله في أذان واحد.

الصفة الجسدية

كان بلال شديد السواد، حبشي الملامح، وهو ما جعل بعض من لم يعرف قدره يستهين به لأصله ولونه، حتى وقعت حادثة أبي ذر التي ذُكرت في موضعها، والتي حسمت أن لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

الوفاة

توفي بلال بن رباح في دمشق بالشام سنة عشرين للهجرة تقريبًا (641م)، ويُروى أن زوجته بكت عند احتضاره فقالت: واحزناه! فقال لها: بل وا طرباه! غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه. ودُفن بدمشق.

الفصل الثامن

سلمان الفارسي

الباحث عن الحقيقة في أربع قارات

النسب والنشأة

هو سلمان، وكان اسمه قبل الإسلام "رُوزبِه"، ابن أسرة فارسية من قرية قرب أصفهان، وكان أبوه دِهقان القرية وسيدها، وكان بيته على دين المجوسية، حتى إن أباه أقعده حارسًا على النار المقدسة لئلا تنطفئ، وأعدّه لوراثة تلك المكانة الدينية في قومه.

قصة الهداية والإسلام

في طريقه ذات يوم مرّ سلمان بكنيسة نصرانية، فسمع صلاتهم فأعجبته، فبدأ رحلة بحث لن تهدأ لعشرين عامًا. حين اكتشف أبوه ميله إلى النصرانية سجنه، لكنه هرب، ولحق بأحد الرهبان في الشام يخدمه ويتعلم منه، فلما مات أوصاه بآخر، وهكذا انتقل بين عدد من الرهبان الصالحين رجلًا بعد رجل، حتى أوصاه آخرهم قبيل موته بأن نبيًّا سيُبعث في أرض العرب، بين حرّتين، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، وأمره أن يلحق به إن استطاع.

في طريقه إلى جزيرة العرب، خدعه قومٌ من الأعراب استأمنهم فباعوه عبدًا، حتى استقر به الرقّ عند امرأة من بني قريظة في المدينة. وحين قدم النبي ﷺ المدينة مهاجرًا، اختبر سلمان العلامات الثلاث واحدة واحدة: جاءه بطعام صدقة، فوزّعه النبي ﷺ على أصحابه ولم يأكل منه، فتأكدت العلامة الأولى؛ ثم جاءه بهدية، فأكل منها النبي ﷺ ودعا أصحابه، فتأكدت الثانية؛ ثم استدار خلفه ليرى خاتم النبوة بين كتفيه، ففطن له النبي ﷺ وكشف عن ظهره له، فوقع سلمان يقبّل ذلك الموضع باكيًا، وأسلم، وقصّ قصته كاملة.

كاتب النبي ﷺ سيده على أن يُعتقه إن غرس له ثلاثمائة نخلة ودفع له وزنًا من الذهب، فأعان النبي ﷺ أصحابه على غرس النخل بيده الشريفة، فما ماتت منها نخلة واحدة، ثم جيء بالذهب فأعتق سلمان، فصار حرًّا بعد رقّ طويل.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

في غزوة الخندق سنة خمس للهجرة، حين تشاور المسلمون في صدّ جموع الأحزاب، اقترح سلمان حفر خندق حول المدينة، وهي خطة حربية فارسية لم تعرفها العرب من قبل، فأخذ بها النبي ﷺ، فنجت المدينة من حصار كان يمكن أن يكون قاضيًا عليها.

ولما تنازع المهاجرون والأنصار أيهما أولى بسلمان وهو يحفر معهم بجدّ، كلٌّ يقول: سلمان منّا، فصل النبي ﷺ النزاع بقوله الخالد: "سلمان منّا أهل البيت"، فرفعه بذلك فوق كل انتماء قبلي أو عرقي، وجعله في مقام الانتساب إلى بيت النبوة نفسه، وهو أعظم تكريم نالته شخصية غير عربية في صدر الإسلام.

تولى سلمان لاحقًا في عهد عمر بن الخطاب إمارة المدائن قرب عاصمة كسرى القديمة، فحكم تلك البلاد الواسعة وهو يعيش من عمل يده كما كان قبل الإمارة، يأكل من سعف النخل الذي يصنعه، رافضًا أن يزيد عطاءه على قوته، حتى صار عنوانًا للزهد وسط السلطان.

ولمكانة سلمان بين الفرس الذين دخلوا الإسلام نزلت فيه إشارة قرآنية بديعة: فحين تلا النبي ﷺ قوله تعالى في سورة الجمعة: "وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ"، سأله أصحابه: من هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يُجب حتى سُئل ثلاثًا، وكان سلمان الفارشي حاضرًا بينهم، فوضع النبي ﷺ يده عليه وقال: "لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء"، أو قال: "لناله رجل من فارس"، مشيرًا إلى سلمان، في تكريم نبوي لم يُبقِ لأحد بعده عذرًا في التعصب للعرق أو الجنس على حساب صدق الإيمان.

ومن ألطف مواقفه مع إخوانه من الصحابة، ما كان بينه وبين أبي الدرداء الذي آخى النبي ﷺ بينهما: زار سلمان أبا الدرداء في بيته فوجد زوجته أم الدرداء في هيئة مهملة زاهدة، فسألها عن حالها، فقالت: إن أخاك أبا الدرداء لا حاجة له في الدنيا، يصوم النهار كله ويقوم الليل كله ولا يلتفت إليّ. فلما جاء أبو الدرداء وقدّم لسلمان طعامًا قال له: كُل، فقال سلمان: لا آكل حتى تأكل معي، فأكل أبو الدرداء كارهًا لأنه كان صائمًا نفلًا، ثم بات سلمان عنده، فلما أراد أبو الدرداء أن يقوم الليل كله كعادته، أمسكه سلمان وقال له: نَم، فنام، ثم أراد القيام في آخر الليل فأمسكه أيضًا حتى قارب الفجر، فأذن له عندها، فصليا معًا، ثم قال له سلمان نصيحته الخالدة: "إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كل ذي حق حقه." فلما ذكر أبو الدرداء ذلك للنبي ﷺ، صدّقه وأقرّه بقوله: "صدق سلمان"، فصار هذا الموقف أصلًا يُحتكم إليه في التحذير من الغلوّ ولو كان بنيّة صادقة في العبادة.

الوفاة

توفي سلمان الفارشي بالمدائن في العراق، على الأرجح في حدود سنة ثلاث وثلاثين أو أربع وثلاثين للهجرة (654م تقريبًا)، بعد عمر طويل عاشه باحثًا عن الحق قبل الإسلام، وحارسًا له بعد أن وجده. ولا يزال ضريحه في المدائن (سلمان پاك) بالعراق مزارًا معروفًا إلى اليوم.

الفصل التاسع

عمار بن ياسر

ابن أول شهيدين في الإسلام

النسب والنشأة

هو عمار بن ياسر بن عامر العنسي، جاء أبوه ياسر من اليمن إلى مكة باحثًا عن أخ له مفقود، فأقام فيها حليفًا لبني مخزوم، وتزوج سُمية بنت خبّاط، وهي مولاة لأبي حذيفة بن المغيرة، فوُلد عمار من أبوين لا عشيرة قوية تحميهما في مكة، غريبين بين أشراف قريش.

قصة الهداية والإسلام

أسلمت الأسرة الصغيرة كلها: ياسر وسمية وعمار، فكانوا من أوائل من جهروا بإيمانهم، ولأنهم بلا حماية قبلية، انقضّ عليهم أبو جهل وصناديد قريش بأشد أنواع التعذيب: يُخرجونهم إلى رمضاء مكة في الظهيرة، ويُعذّبونهم حتى يكاد الجَلد يذوب. وذات يوم مرّ بهم النبي ﷺ وهم على تلك الحال، فلم يملك إلا أن يقول كلمات لا تملك يده وقتها قوة لإنقاذهم بها: "صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة."

طعن أبو جهل سمية بنت خباط بحربة في مقتل غيظًا من ثباتها، فكانت بذلك أول شهيدة في الإسلام، ولحق بها زوجها ياسر بعد أيام تحت وطأة العذاب نفسه، فكان ثاني شهيد. أما عمار، فتحت هول التعذيب، نطق بكلمة كفر ظاهرها يرضي جلاديه بينما قلبه مطمئن بالإيمان، فنزل في شأنه قول الله تعالى: "مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ"، عذرًا إلهيًّا صريحًا لمن يُكره على كلمة لا يؤمن بها قلبه. أتى عمار إلى النبي ﷺ باكيًا يظن أنه هلك، فمسح النبي ﷺ عينيه وقال له: "إن عادوا فعُد"، مطمئنًا إياه أن ما قاله تحت الإكراه لا يمسّ إيمانه الحقيقي.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

شهد عمار بدرًا وأُحُدًا والخندق وسائر المشاهد، وشارك في بناء مسجد النبي ﷺ بالمدينة يحمل من اللِّبن ضعف ما يحمله غيره، حتى مسح النبي ﷺ الغبار عن رأسه رحمة به وهو يقول: "ويح ابن سمية، تقتله الفئة الباغية." وقال فيه أيضًا: "ما خُيّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما"، شهادة بحسن سداد رأيه في كل موقف يُختبر فيه.

وقد تحققت تلك النبوءة النبوية بعد عقود طويلة، حين شارك عمار، وهو في التسعين من عمره تقريبًا، في معركة صفّين ضمن جيش علي بن أبي طالب، فقُتل فيها، فتذكّر المسلمون حينها قول النبي ﷺ فيه، وأدركوا أنه علامة أُعطيت للأمة قبل وقوعها بعقود لتكون نبراسًا يُهتدى به في تمييز الفئة الباغية من غيرها.

غزواته ومشاهده

شهد عمار بدرًا وأُحُدًا والخندق وسائر المشاهد مع النبي ﷺ، ثم شارك في فتوحات العراق، وتولى إمارة الكوفة في عهد عمر بن الخطاب، قبل أن يُختم عمره الطويل في معركة صفّين.

مدرسته الفقهية وآراؤه

يُنسب إلى عمار رأي فقهي مشهور في التيمم، إذ رُوِي أنه تمرّغ بجسده كله في التراب ظنًّا منه أن التيمم كالغسل يُعمّم على الجسد كله، فصحّح له النبي ﷺ ذلك بضرب اليدين على الصعيد ومسح الوجه والكفين فقط، وصارت هذه الحادثة أصلًا يُستشهد به في كتب الفقه عند الحديث عن صفة التيمم الصحيحة.

الوفاة

استُشهد عمار بن ياسر في معركة صفّين سنة سبع وثلاثين للهجرة (657م)، وهو في عقده التاسع تقريبًا، فكان بذلك خاتمة سيرة بدأت بالتعذيب على يد أبي جهل وانتهت بالشهادة بعد عمر طويل قضاه كله في خدمة الدين الذي دفع أهله ثمنه غاليًا منذ اليوم الأول.

الفصل العاشر

عبد الله بن عمرو بن العاص

صاحب الصحيفة الصادقة

النسب والنشأة

هو عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي، ابن الصحابي عمرو بن العاص، وقد سبق أباه إلى الإسلام، فأسلم عبد الله قبل أن يُسلم عمرو نفسه بسنوات.

قصة الهداية والإسلام

نشأ عبد الله شديد الحرص على العلم والعبادة منذ صغره، حتى صار من أكثر الصحابة اجتهادًا في قيام الليل وصيام النهار وحفظ القرآن، إلى درجة أقلقت النبي ﷺ نفسه على صحته وحق أهله عليه.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

استأذن عبد الله بن عمرو النبي ﷺ في كتابة كل ما يسمعه منه، فتردد بعض الصحابة في ذلك خشية أن يكتب ما يقوله النبي ﷺ في الرضا والغضب معًا، فسأل عبد الله النبي ﷺ نفسه، فأشار إلى فمه وقال: "اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق." فجمع بذلك صحيفة عُرفت بـ"الصادقة"، من أقدم وأوثق ما دُوّن من حديث النبي ﷺ في حياته نفسها.

وحين بلغ من العبادة مبلغًا شديدًا، أراد أن يختم القرآن كل ليلة ويصوم كل يوم ويقوم كل ليلة، فقال له النبي ﷺ: "اقرأ القرآن في شهر"، فقال: إني أطيق أفضل من ذلك، فما زال يخفّضه له حتى قال: "اقرأه في سبع ولا تزد على ذلك"، وقال له أيضًا: "إن لعينك عليك حقًّا، وإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزَورك عليك حقًّا." وقد ندم عبد الله في شيخوخته على أنه لم يأخذ بالرخصة الأولى الأخف حين كان قادرًا عليها في شبابه.

روايته للحديث وتلاميذه

روى عبد الله بن عمرو أحاديث كثيرة معتمِدًا على صحيفته المكتوبة "الصادقة"، وهو ما جعل روايته من أدق وأوثق روايات الصحابة لاعتمادها على الكتابة المباشرة لا الحفظ وحده.

الوفاة

توفي عبد الله بن عمرو بن العاص في أواخر عهد معاوية بن أبي سفيان، في حدود سنة ثلاث وستين إلى خمس وستين للهجرة، واختُلف في مكان وفاته بين مكة والطائف ومصر، تاركًا صحيفته المكتوبة إرثًا مبكرًا فريدًا في تاريخ تدوين الحديث النبوي.

الفصل الحادي عشر

أبو ذر الغفاري

الزاهد الذي أقلق الملوك

النسب والنشأة

هو جُندب بن جُنادة، من بني غفار، قبيلة كانت تسكن على طريق القوافل بين مكة والشام، واشتهرت – قبل الإسلام – بالإغارة على القوافل وقطع الطريق، حتى إن أبا ذر نفسه لم يكن بعيدًا عن ذلك العيش الخشن. لكنه، رغم بيئته، كان من أوائل من رفض عبادة الأصنام بفطرته وحده، قبل أن يسمع بمحمد ﷺ بسنوات، فكان يصلي – على غير هدى واضح – لربٍّ واحدٍ لا يعرف اسمه بعد.

قصة الهداية والإسلام

حين بلغه خبر نبي بُعث في مكة، أرسل أخاه أُنيسًا ليستطلع الأمر، فعاد أنيس بأخبار متضاربة، فقرر أبو ذر أن يذهب بنفسه. في مكة، التقى عليّ بن أبي طالب الذي أدرك حاجته وحذره من إعلان قدومه علنًا، فآواه أيامًا حتى اطمأن، ثم أدخله على النبي ﷺ في دار الأرقم، فأسلم من فوره، وكان – بحسب بعض الروايات – من أوائل من أسلم، لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة.

ثم فعل ما لم يفعله كثيرون من السابقين: مضى إلى المسجد الحرام، ووقف بين صناديد قريش، وأعلن الشهادتين بأعلى صوته. انهالوا عليه ضربًا حتى أُثخن، فأنقذه العباس بن عبد المطلب صائحًا فيهم: "ويلكم، أتقتلون رجلًا من غفار وتجارتكم وممرّكم على غفار؟!" منقذًا إياه بحسابات التجارة لا برأفة العقيدة. عاد أبو ذر إلى قومه، فلم يهدأ حتى أسلم على يديه نصف قبيلة غفار، ثم أسلمت قبيلة أسلم كاملة وهي تقول: أسلمنا كما أسلم أبو ذر.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

قال فيه النبي ﷺ: "ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر"، شهادة نبوية له بأنه أصدق الناس لسانًا تحت أديم السماء. وكان أبو ذر يأخذ هذه الشهادة على محمل الجد الكامل، فلا يجامل في قول الحق ولو كان مُرًّا على أصحاب السلطان.

في أواخر عهد عثمان بن عفان، حين اتسعت الفتوح وكثرت الأموال في الشام، رأى أبو ذر ما استكثره من إنفاق بعض الولاة والأثرياء وترفهم، فأخذ يجهر بإنكار اكتناز المال دون إخراج حقه، مستشهدًا بقول الله تعالى: "وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"، حتى ضاق به بعض ولاة الشام ذرعًا، فطُلب إلى المدينة، ثم رأى عثمان أن يُبعده إلى الربذة، وهي أرض قاحلة قرب المدينة، ليكفّ عن الجهر بما يُحرج الولاة، فخرج إليها وحيدًا لا يرافقه إلا أهل بيته الصغير.

وقد كان النبي ﷺ أخبره من قبل بمصيره ذاك حين قال له: "كيف بك يا أبا ذر إذا كنت في فلاة من الأرض؟" فقال: أنا إذن كما أراد الله. وحين حضرته الوفاة في الربذة، بكت زوجته لأنها لا تجد ما تكفّنه به، فذكّرها أبو ذر بحديث سمعه من النبي ﷺ يقول فيه لنفر من الصحابة: "ليموتنّ فيكم رجل يشهده عصابة من المؤمنين"، وطلب منها أن تراقب الطريق، فأقبلت قافلة من الكوفة على رأسها عبد الله بن مسعود ونفر من الصحابة، فتولوا دفنه وتصديق نبوءة النبي ﷺ فيه، وكأن الله أراد ألا يموت الصادق اللهجة إلا وحوله من يشهد له بأنه لم يمت وحيدًا حقًّا وإن مات في فلاة.

مدرسته الفقهية وآراؤه

عُرف أبو ذر برأي فقهي واجتماعي متشدد في وجوب إنفاق فائض المال كله وعدم ادّخاره، مستندًا إلى ظاهر آية الكنز في سورة التوبة، وهو رأي خالفه فيه جمهور الصحابة الذين رأوا الآية خاصة بمن يمنع الزكاة المفروضة لا كل ادّخار مشروع، فبقي رأي أبي ذر رأيًا فرديًّا صارمًا لم يُجمع عليه، لكنه ظل شاهدًا على شدة ورعه.

الوفاة

توفي أبو ذر الغفاري في الربذة سنة اثنتين وثلاثين للهجرة تقريبًا (652م)، منفيًّا عن العاصمة بسبب جرأته في النقد، ودُفن هناك في الأرض التي تنبأ النبي ﷺ بمصيره فيها.

الفصل الثاني عشر

مصعب بن عمير

فتى مكة الذي باع الحرير بالخشونة

النسب والنشأة

هو مصعب بن عُمير بن هاشم بن عبد الدار القرشي، من بني عبد الدار، وكان قبل إسلامه أنعم فتيان مكة عيشًا وأجملهم زيًّا، حتى عُرف بـ"فتى مكة المدلَّل"، تربّى في حجر أمّه الثرية التي لم تدّخر عنه رفاهية، فكان يلبس أفخر الثياب اليمانية ويُضرب به المثل في الأناقة بين شباب قريش.

قصة الهداية والإسلام

أسلم مصعب سرًّا في مطلع الدعوة، يتردد على دار الأرقم خفية خشية أن تعلم أمه أو قومه، حتى رآه أحد فتيان قريش وهو يصلي فأخبر أمه وأهله، فحبسوه وضيّقوا عليه أشد التضييق يريدون منه أن يرتد عن دينه. صمد مصعب، فتخلّت عنه أسرته وقطعت عنه المال الذي كان يغرقه رفاهية، حتى تبدّل حاله كليًّا: من فتى يلبس أفخر الثياب إلى شاب يرتدي جلدًا مرقّعًا، حتى إن جلده تقشّر من شدة الفاقة كما وصفه من عرفه قبل ذلك بأيام قليلة فحسب.

هاجر إلى الحبشة في الهجرة الأولى، ثم عاد، وكانت أعظم مهماته حين أرسله النبي ﷺ إلى المدينة بعد بيعة العقبة الأولى ليكون أول سفير ومعلّم للإسلام في تاريخه، يُقرئ الأنصار القرآن ويعلّمهم الدين قبل أن يهاجر إليهم النبي ﷺ نفسه.

وفي إحدى جلساته يقرأ القرآن في حديقة لبني ظفر، سمع به أسيد بن حضير، أحد سادة الأوس، فأقبل عليه شاهرًا حربته غاضبًا مما يسمعه عن هذا الغريب الذي يفتن شباب قومه، فقال له مصعب في هدوء لم يهتز: "أولا تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كففتُ عنك ما تكره." فجلس أسيد وسمع، حتى أشرق وجهه وقال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف يُصنع إذا أراد المرء الدخول في هذا الدين؟ فأسلم من فوره. ثم عاد إلى سعد بن معاذ، سيد الأوس الأكبر، وأخبره بما جرى، فانطلق سعد إلى مصعب غاضبًا كما فعل صاحبه من قبله، وتكرر المشهد نفسه بحذافيره: الدعوة إلى الجلوس والاستماع، ثم إشراق الوجه، ثم الإسلام. فما إن أسلم سعد حتى مضى إلى قومه بني عبد الأشهل، ووقف فيهم خطيبًا وقال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا. فقال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. فما

أمسى ذلك اليوم في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا وقد أسلم، بفضل بذرة زرعها مصعب في مجلس واحد على أطراف حديقة.

فأسلم على يديه في المدينة عدد كبير من الأنصار، وعلى رأسهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، سيّدا الأوس، اللذان أقبلا عليه أول الأمر مهدّدَين غاضبين، فما إن سمعا منه بعض القرآن حتى أسلما، فتبعتهما عشيرتهما كلها.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

في غزوة أُحُد، حمل مصعب راية المسلمين، ودافع عن النبي ﷺ حين انكشفت الصفوف واقترب المشركون منه، فأقبل عليه ابن قِمئة الليثي فضرب يمينه فقطعها، فحمل الراية بشماله وهو يتلو: "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ"، فضُربت شماله أيضًا فقُطعت، فاحتضن الراية بعضديه حتى طُعن طعنة أَرْدَته شهيدًا، وظنّ قاتله أنه قتل النبي ﷺ بنفسه لشدة الشبه بينهما في تلك اللحظة، فصرخ معلنًا مقتل محمد، فأصاب المسلمين هلع شديد حتى تبيّن كذب الخبر.

ولمّا أرادوا تكفينه، لم يجدوا له إلا كساءً صغيرًا (نَمِرة)، إن غطّوا بها رأسه بدت قدماه، وإن غطّوا بها قدميه بدا رأسه، فأمر النبي ﷺ أن يُغطّى بها رأسه ويُجعل على قدميه شيء من إذخر الحشيش. وبعد سنوات، حين اتّسعت الفتوح وكثرت الأموال، كان النبي ﷺ يستحضر تلك اللحظة أمام أصحابه، متذكّرًا الفتى الذي كان أنعم أهل مكة عيشًا، وها هو لا يجد كفنًا يواريه، ليقول لهم إن الدنيا التي فتحت عليهم بعده لن تكون خيرًا مما كانوا فيه إن هي ألهتهم عن الآخرة.

وفي مصعب وأمثاله ممن أوفوا بعهدهم إلى الموت، رأى المفسرون مصداق قول الله تعالى في سورة الأحزاب: "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا"، فكان مصعب عندهم النموذج الأول لمن "قضى نحبه"، أي أوفى بنذره حتى الموت، هو الفتى الذي بدأ حياته بثوبٍ لا يُضاهى وانتهى بها بكساء لا يكفي.

الوفاة

استُشهد مصعب بن عمير في غزوة أُحُد سنة ثلاث للهجرة (625م)، ودُفن في أرض المعركة إلى جوار حمزة بن عبد المطلب، وقبراهما معًا من أشهر مزارات أُحُد إلى اليوم.

الفصل الثالث عشر

حاطب بن أبي بلتعة

صاحب الرسالة التي غفرها بدر

النسب والنشأة

هو حاطب بن أبي بلتعة، حليف لقريش لا نسب أصيل له فيها يحميه، هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا مع النبي ﷺ.

قصة الهداية والإسلام

كان حاطب من السابقين إلى الإسلام والهجرة، لكن إيمانه الصادق لم يمنعه من زلة كبرى لاحقًا كادت تُودي بحياته.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

قبيل فتح مكة، كتب حاطب رسالة سرية إلى قريش يحذّرهم فيها بعزم النبي ﷺ على غزوهم، ودفعها لامرأة تخفيها في شعرها لتوصلها، خشية على أهله وماله الذين تركهم في مكة بلا عشيرة تحميهم كما يحمي غيره من المهاجرين أقاربهم فيها. أخبر الله نبيه ﷺ بالأمر، فأرسل من اعترض المرأة في الطريق واستخرج الرسالة منها كما وصفها تمامًا. غضب عمر بن الخطاب أشد الغضب وطلب قتله بتهمة الخيانة، فاعترف حاطب بفعلته موضحًا أنها لم تكن عن ارتداد أو شك في دينه، بل عن خوف على أهله لا غير. فقال النبي ﷺ لعمر: "وما يدريك؟ لعل الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم." ونزل قول الله تعالى في مطلع سورة الممتحنة محذّرًا من مثل هذا الفعل مستقبلًا: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ."

الوفاة

توفي حاطب بن أبي بلتعة في المدينة المنورة في عهد عثمان بن عفان، في حدود سنة ثلاثين للهجرة (650م)، بعد أن غفر له النبي ﷺ زلته تلك لسابقته في بدر، في درس خالد عن أن للفضل الأول وزنًا يشفع لصاحبه عند الزلل العارض.

الفصل الرابع عشر

صهيب الرومي

الذي رَبِح بيعه مع الله

النسب والنشأة

هو صهيب بن سنان النمري، عربي الأصل من قبيلة النمر بن قاسط في العراق، سُبي وهو طفل صغير في غارة بيزنطية على بلدته الأُبُلّة، فنشأ أسيرًا بين الروم، وتعلّم لغتهم وعاداتهم، حتى عُرف بـ"الرومي" مع أنه عربي الجذور، ثم آلت به الأحوال إلى مكة حيث صار تاجرًا حاذقًا جمع ثروة لا بأس بها رغم أصله المسبي.

قصة الهداية والإسلام

أسلم صهيب مبكرًا، فناله من أذى قريش نصيب لا يقل عمّن سبقه من ضعفاء المؤمنين الذين لا عشيرة تحميهم، رغم ثرائه. ولما عزم على الهجرة إلى المدينة، اعترضه صناديد قريش عند أطراف مكة وقالوا له: أتيتنا صعلوكًا حقيرًا فكثّرت مالك عندنا، والآن تريد أن تخرج بنفسك ومالك معًا؟ والله لا يكون ذلك. فعرض عليهم صهيب أن يأخذوا كل ماله مقابل أن يُخلّوا سبيله، ففعلوا، فخرج إلى المدينة لا يحمل من مال الدنيا شيئًا، وقد حمل دينه كاملًا.

فلما بلغ النبي ﷺ خبره، فرح فرحًا شديدًا وقال مرحّبًا به: "ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى"، وقيل إن الله أنزل في شأنه قوله تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ"، فكانت تجارته تلك، التي خسر فيها كل ماله الدنيوي، أربح صفقة عقدها في حياته كلها.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

كان صهيب من الفقراء الغرباء الذين طلبت قريش من النبي ﷺ طردهم من مجلسه، مع بلال وعمار وخباب، فنزلت فيهم آية "ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي" كما مرّ في موضعه. وكان صهيب أيضًا معروفًا بحسّ الدعابة اللطيف حتى مع النبي ﷺ، فقد رآه ذات مرة يأكل تمرًا وهو أرمد العين، فقال له مداعبًا: "أتأكل التمر وأنت أرمد؟" فأجابه صهيب بخفة روح: "إنما آكل من الجانب الصحيح!" فضحك النبي ﷺ من جوابه.

وحين احتُضر النبي ﷺ في أيامه الأخيرة، كان صهيب ممن يصلّي بالناس أحيانًا نيابة عنه في مرضه لثقته الكبيرة فيه. وبعد وفاة النبي ﷺ مباشرة، وقبل أن تُحسم بيعة أبي بكر الصديق رسميًّا، كان صهيب هو من أُسندت إليه إمامة الصلاة بالناس أيامًا قلائل، وهي مكانة لم تُعطَ إلا لمن يوثق بدينه وعقله ثقة تامة.

الوفاة

توفي صهيب الرومي في المدينة المنورة سنة ثمان وثلاثين للهجرة تقريبًا (659م)، بعد أن عاش عمرًا طويلًا شهد فيه بداية الدعوة ونهاية عصر الخلافة الراشدة، ودُفن بالبقيع.

الفصل الخامس عشر

خباب بن الأرت

الحداد الذي اكتوى ظهره بالنار

النسب والنشأة

هو خباب بن الأرت التميمي، من نجد، سُبي في صغره وبِيع بمكة، فامتهن الحدادة وصناعة السيوف، وصار معروفًا بحذقه في هذه الصنعة حتى قبل إسلامه، مملوكًا لامرأة من خزاعة تُدعى أم أنمار.

قصة الهداية والإسلام

كان خباب من السابقين الأولين إلى الإسلام، فلما علمت مولاته أم أنمار وأهلها بإسلامه، أخذوا يعذبونه تعذيبًا فريدًا في وحشيته: كانوا يُحمون له صفائح الحديد بالنار حتى تحمرّ، ثم يضعونها على ظهره وصدره حتى ينطفئ توهجها بما يسيل من دهن جسده المحروق. وكان خباب لاحقًا، في مجالسه مع الصحابة، يكشف عن ظهره ليُري الحاضرين أثر تلك الصفائح بارزًا على جلده شاهدًا صامتًا على ما لقيه في سبيل إيمانه.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

ذات يوم، وقد بلغ به الألم مبلغه، أتى خباب إلى النبي ﷺ وهو متوسّد بردة له في ظل الكعبة، فقال له: ألا تدعو الله لنا؟ فتغيّر وجه النبي ﷺ واحمرّ، ثم جلس وقال: "لقد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها، ثم يُؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيُشقّ باثنين، ما يصدّه ذلك عن دينه، ويُمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمّنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله." فكان هذا الحديث تذكيرًا بأن الصبر على المحنة سُنّة من قبلهم، ووعدًا بأمن قادم لا يزال بعيد المنال في تلك اللحظة.

وبعد عقود، حين اتسعت الفتوح وكثرت الأموال في الكوفة التي استقر بها خباب، صار من أثرى الصحابة، لكنه ظل يقارن حاله بمن سبقه من إخوانه الفقراء الذين ماتوا قبل أن يذوقوا من ثمار تلك الفتوح شيئًا، فكان يقول متأملًا حاله وحال مصعب بن عمير الذي استُشهد فقيرًا لا يجد كفنًا يواريه: "هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئًا في الدنيا، منهم مصعب بن عمير قُتل يوم

أُحُد ولم يترك إلا نمِرة... ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها"، في تأمل عميق يقارن فيه بين من نال الشهادة في عزّ الفقر ومن طال به العمر حتى أدركته زينة الدنيا، غير متيقن أيّ الحالين أخفّ حسابًا يوم القيامة.

الوفاة

توفي خباب بن الأرت في الكوفة سنة سبع وثلاثين للهجرة تقريبًا (657م)، وقيل إنه أول من دُفن من المهاجرين بأرض الكوفة، بعد أن جمع بين طرفي التجربة الإنسانية: عذاب الفقر والاستضعاف في أول حياته، ورغد المال والفتوح في آخرها.

الفصل السادس عشر

المقداد بن الأسود

صاحب خطبة بدر الخالدة

النسب والنشأة

هو المقداد بن عمرو البهراني، عُرف بـ"ابن الأسود" لتبنّي الأسود بن عبد يغوث له في الجاهلية قبل أن يبطل الإسلام نسبة التبني فيعود إلى نسبه الأصلي، وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام، يُعدّ سابع من أسلم بحسب بعض الروايات.

قصة الهداية والإسلام

أسلم المقداد مبكرًا جدًّا، وصمد على إيمانه وسط أشد أيام مكة قسوة على المستضعفين من المسلمين، حتى هاجر إلى المدينة، وكان من الفرسان القلائل الذين ملكوا خيلًا يوم بدر، إذ كانت المعركة الأولى في معظمها معركة مشاة.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

حين استشار النبي ﷺ أصحابه قبل بدر في الخروج لملاقاة قريش، وكان يخشى ألا يوافقه الأنصار على القتال خارج المدينة لأن بيعتهم في العقبة كانت على الدفاع عنها لا الخروج منها، قام المقداد بن الأسود فقال كلمته الخالدة: "يا رسول الله، امضِ لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه." فسُرّ النبي ﷺ بهذا الكلام سرورًا بالغًا، وأشرق وجهه له، فكانت هذه الخطبة القصيرة نموذجًا خالدًا للولاء الكامل غير المشروط للقيادة الصادقة في سبيل حق واضح.

الوفاة

توفي المقداد بن الأسود بالجُرف قرب المدينة المنورة سنة ثلاث وثلاثين للهجرة تقريبًا (653م)، في عهد عثمان بن عفان، تاركًا خطبته تلك محفورة في ذاكرة الأمة كلما ذُكر معنى الولاء الصادق.

الفصل السابع عشر

زيد بن الخطاب

الذي سبق أخاه عمر مرّتين

النسب والنشأة

هو زيد بن الخطاب بن نُفيل العدوي القرشي، الأخ الأكبر لعمر بن الخطاب من أبيه، من بني عدي بن كعب.

قصة الهداية والإسلام

أسلم زيد قبل أخيه عمر، فكان أول من أسلم من بني عدي، سابقًا بذلك أخاه الذي سيصير لاحقًا أحد أعظم الخلفاء، إلى شرف لم يدركه عمر إلا بعده بزمن.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

شهد زيد بدرًا وما بعدها، حتى معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذّاب، حيث كان يحمل الراية ويحرّض المسلمين على الثبات، فقال كلمته الأخيرة المشهورة: "عَضّوا عليها بالنواجذ، ولا يفوقنّكم رجل حتى يفتح الله علينا أو نلحق بالله"، ثم قاتل حتى استُشهد.

وكان عمر بن الخطاب، بعد أن صار خليفة للمسلمين، كلما أثنى عليه أحد أو قيل له إنه خير الناس، بكى وقال: سبقني زيد إلى الإسلام مرة، وإلى الشهادة مرة أخرى، فما أدركته في واحدة منهما. وكان إذا هبّت الريح من ناحية اليمامة تمنى أن تحمل إليه شيئًا من تراب قبر أخيه، فرقةً به وشوقًا إلى من سبقه في كل خير إلى آخر لحظة من حياته.

الوفاة

استُشهد زيد بن الخطاب في معركة اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة (633م)، قبل أن يرى أخاه عمر خليفة للمسلمين بعام واحد فقط، تاركًا في نفس أخيه حسرة محبّة لم تُفارقه طوال خلافته.

الفصل الثامن عشر

عثمان بن مظعون

الزاهد الذي رفض الرهبانية

النسب والنشأة

هو عثمان بن مظعون الجُمحي، من السابقين الأولين إلى الإسلام، رجلٌ ذو نزعة زهدية عميقة حتى قبل أن يهتدي كمال الهدى.

قصة الهداية والإسلام

أسلم عثمان مبكرًا، وهاجر إلى الحبشة في الهجرة الأولى، ثم عاد إلى مكة تحت جوار رجل مشرك من أقاربه، الوليد بن المغيرة، حماه من أذى قريش. لكن عثمان، حين رأى إخوانه المسلمين يُعذَّبون وهو آمن بجوار مشرك، استوحش تلك السلامة، فذهب إلى الوليد وطلب منه أن يُعلن أمام الملأ فكّ جواره عنه، ليكون عرضة للأذى كبقية إخوانه سواء بسواء، رافضًا أن يتمتع بأمان لا يشاركه فيه من آمن معه.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

لما بلغ النبي ﷺ ما آل إليه حال عثمان من التقشف المفرط، دعاه وقال له منكرًا: "يا عثمان، لم يُرسلني الله بالرهبانية، ولكن بعثني بالحنيفية السمحة، أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأُباشر النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني." وقال له أيضًا كلامًا في معنى ما قاله سلمان لأبي الدرداء لاحقًا: إن لجسدك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا. فكفّ عثمان عن غلوّه، وصار موقفه هذا أصلًا يُستشهد به كلما مال أحد إلى تحريم ما أحلّ الله من طيبات الحياة باسم التعبّد.

كان عثمان بن مظعون أول المهاجرين موتًا في المدينة على فراشه، لا شهيدًا في معركة، فحزن النبي ﷺ عليه حزنًا بالغًا، وانحنى عليه يقبّل وجهه وهو يبكي، ثم أمر بدفنه في أرض عُرفت بعدها بالبقيع، فكان بذلك أول من فُتح له ذلك المقبرة التي صارت مثوى أهل المدينة من الصحابة والتابعين من بعده جميعًا.

الوفاة

توفي عثمان بن مظعون في المدينة المنورة بُعيد غزوة بدر بيسير، في السنة الثانية للهجرة (624م)، فكان بذلك أول من فُتح به مقبرة البقيع التي ضمّت بعده آلاف الصحابة والتابعين إلى يوم الناس هذا.

الفصل التاسع عشر

عُمير بن وهب

الذي جاء ليقتل النبي ﷺ فأسلم على يديه

النسب والنشأة

هو عُمير بن وهب الجُمحي، من فرسان قريش ودهاتها، كان ابنه وهب بن عمير قد أُسر يوم بدر، فحمل في قلبه رغبة انتقام لم تجد طريقها بعد.

قصة الهداية والإسلام

جلس عمير مع صفوان بن أمية يتحسران على قتلى بدر، فقال عمير: لولا دين عليّ لا أجد لـه قضـاءً، وعيـال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد فقتلته. فقال له صفوان: عليّ دينك أقضيه، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا. فسنّ عمير سيفه وسمّه، وسافر إلى المدينة بحجـة أنـه يريـد فـداء ابنـه الأسـير. رآه عمـر بن الخطاب متقلّدًا سيفه فأمسك بحمالة سيفه وجرّه إلى النبي ﷺ قائلًا: هذا الخبيث الفـاجر عمـير بن وهب لا يؤمن على شيء. فقال له النبي ﷺ: دعه يا عمر، ادنُ يا عمير. فلما دنا، سأله النبي ﷺ عن سبب مجيئه، فذكر فداء ابنه، فقال له النبي ﷺ: فما بال السيف في عنقك؟ ثم أخبره بتفصيل ما دار بينه وبين صفوان في الحِجر بمكة، حرفًا حرفًا، وهو أمر لم يطّلع عليه أحد سواهما. فبُهت عمير وقال: أشهد أنك رسول الله، فقد كنا نكذّبك بما تأتينا به من خبر السماء، وهذا أمر ما حضره إلا أنا وصفوان، فما أتاك به إلا الله. فأسلم من فوره.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

أذن له النبي ﷺ بعد إسلامه أن يعود إلى مكة يدعو قومه إلى الإسلام كما جاء يقتل نبيهم، فعاد وجعل يدعو إلى الله بالحكمة نفسها التي جاء بها متآمرًا، حتى أسلم على يديه عدد من أهل مكة قبل فتحها.

الوفاة

توفي عُمير بن وهب في المدينة المنورة في حدود عهد عمر بن الخطاب، بعد أن قضى ما تبقى من عمره داعيًا إلى الدين الذي جاء ليحارب نبيّه، في واحدة من أعجب قصص التحول في السيرة النبوية.

الفصل العشرون

الطفيل بن عمرو الدوسي

الذي أراد أن يصمّ أذنيه عن القرآن فهداه

النسب والنشأة

هو الطفيل بن عمرو الدوشي، شاعر وسيد قومه دوس باليمن، وكان معروفًا بحصافة رأيه ورجاحة عقله بين العرب.

قصة الهداية والإسلام

لما قدم الطفيل مكة، حذّرته قريش من الاستماع إلى محمد ﷺ، ووصفوا كلامه بأنه سحر يفرّق بين المرء وأبيه وأخيه وزوجه، فحشا الطفيل أذنيه بالقطن خشية أن يُفتن، لكن الله شاء أن يسمع رغمًا عنه بعض ما يقوله النبي ﷺ في الكعبة، فوجده كلامًا حسنًا، فنزع القطن وأنصت له كاملًا، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فأسلم من فوره.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

طلب الطفيل من النبي ﷺ آية يستعين بها على دعوة قومه، فدعا له النبي ﷺ، فجُعل له نور بين عينيه يضيء إذا صلّى بالليل، ففزع الطفيل أن يُظن ذلك مثلة في وجهه، فدعا الله أن يحوّله عنه، فتحوّل النور إلى طرف سوطه يضيء له كالمصباح كلما قام يصلي بالليل. عاد الطفيل إلى قومه دوس يدعوهم إلى الإسلام سنوات طويلة بصبر لم يكلّ، حتى شكا مرة تعنّتهم للنبي ﷺ وطلب منه أن يدعو عليهم، فدعا النبي ﷺ بدلًا من ذلك: "اللهم اهدِ دوسًا وائت بهم"، فأسلمت القبيلة كلها بعد ذلك.

الوفاة

استُشهد الطفيل بن عمرو الدوشي في حروب الردة، في حدود السنة الثانية عشرة للهجرة (633م)، بعد أن رأى قبل استشهاده رؤيا بشّرته بحسن مصيره، فقصّها على من حوله قبيل استشهاده مطمئنًا.

الفصل الحادي والعشرون

عبد الله بن حذافة السهمي

الذي بكى ليتمنى مئة موتة في سبيل الله

النسب والنشأة

هو عبد الله بن حذافة السهمي، من بني سهم، هاجر إلى الحبشة مع أوائل المهاجرين، وعُرف بجرأته وثباته الاستثنائي أمام أعتى أنواع التهديد.

قصة الهداية والإسلام

أسلم عبد الله بن حذافة مبكرًا، وكان ممن هاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم، ثم عاد ليكون من أخصّ رسل النبي ﷺ إلى ملوك الأرض.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

حمل عبد الله بن حذافة رسالة النبي ﷺ إلى كسرى ملك الفرس يدعوه فيها إلى الإسلام، فمزّق كسرى الرسالة استكبارًا، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: "مزّق الله ملكه"، فتحققت تلك الدعوة بزوال ملك الفرس بعد سنوات قليلة على يد المسلمين.

وفي عهد عمر بن الخطاب، أُسر عبد الله بن حذافة عند الروم، فحاول ملكهم إغراءه بترك دينه مقابل نصف ملكه وتزويجه ابنته، فرفض رفضًا قاطعًا، فهدده بالقتل صلبًا ورميًا بالسهام قريبًا منه دون إصابته إرهابًا له، ثم أمر بغلي رجل آخر من الأسرى المسلمين في زيت مغلي أمام عينيه ليرهبه، فبكى عبد الله، فظن الملك أنه ضعف، فسأله عن سبب بكائه، فقال: بكيت لأن لي نفسًا واحدة تُقتل الآن في سبيل الله، وتمنيت لو أن لي مئة نفس تُلقى واحدة تلو الأخرى في هذا الزيت كلها في سبيل الله. فأُعجب الملك بثباته إعجابًا بالغًا، وعرض عليه أن يُطلق سراحه مقابل أن يُقبّل رأسه فقط، فرأى عبد الله أن ذلك لا يمسّ دينه في شيء فقبل، فأطلقه الملك مع عدد من أسرى المسلمين تكريمًا لذلك الثبات النادر. فلما بلغ عمر بن الخطاب الخبر قال: حقٌّ على كل مسلم أن يُقبّل رأس عبد الله بن حذافة، وبدأ هو بنفسه بتقبيله.

الوفاة

توفي عبد الله بن حذافة السهمي في عهد عثمان بن عفان، في حدود سنة خمس وثلاثين للهجرة، تاركًا في التاريخ الإسلامي واحدة من أعظم قصص الثبات على الدين أمام أعتى صنوف الترهيب والترغيب معًا.

الفصل الثاني والعشرون

سلمة بن الأكوع

خير رجالة المسلمين

النسب والنشأة

هو سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي، عُرف ببراعة نادرة في الرمي والعَدْو، حتى قيل إنه كان يسبق الخيل جريًا على قدميه.

قصة الهداية والإسلام

أسلم سلمة مع قومه أسلم، وبايع النبي ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة في الحديبية ثلاث مرات في مواضع مختلفة من المبايعة.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

في غزوة ذي قرد، أغار على إبل المسلمين لصوص من غطفان وساقوها، فلحق بهم سلمة راجلًا وحده يعدو خلف خيلهم، يرميهم بالنبل حتى أرغمهم على ترك ما نهبوه والفرار، فاسترد الإبل كلها بمفرده تقريبًا قبل أن يلحق به بقية المسلمين. فقال النبي ﷺ حين بلغه الخبر: خير رجالتنا سلمة بن الأكوع.

الوفاة

توفي سلمة بن الأكوع في المدينة المنورة في حدود سنة أربع وسبعين للهجرة (693م)، بعد أن قضى شطرًا من آخر حياته في الربذة قبل أن يعود إلى المدينة قبيل وفاته.

الفصل الثالث والعشرون

جُليبيب

الذي لا نسب له فكان منه النبي ﷺ وكان منه

النسب والنشأة

هو جُليبيب، ولا تكاد كتب السيرة تحفظ من نسبه شيئًا يُعتدّ به عند العرب، فقد كان مجهول الأصل تقريبًا، قصير القامة دميم الخِلقة بحسب ما وصفه من عرفه، فقيرًا لا عشيرة تُعرف باسمه ولا يُشار إليه في المجالس إلا بأنه "جليبيب" وحده، رجل من هامش المجتمع المكي والمدني في وقت كانت تحكمه معايير النسب والجمال والمال صرامة لا ترحم.

قصة الهداية والإسلام

لا تُفصّل الروايات كثيرًا قصة إسلامه، لكنها تُجمِل أنه كان من فقراء المهاجرين أو من تعرّف إلى الإسلام في المدينة، وأن النبي ﷺ كان يعرفه شخصيًّا رغم خموله الاجتماعي، ويسأل عنه أحيانًا: "أين جليبيب؟"

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

لاحظ النبي ﷺ يومًا وحدة جليبيب وأنه لا أحد يرضى بتزويجه ابنته لهوانه في أعين الناس، فقصد بنفسه رجلًا من الأنصار وقال له: "زوّجني ابنتك"، ففرح الرجل ظنًّا منه أن الخِطبة للنبي ﷺ نفسه وقال: نِعمًا وكرامة يا رسول الله. فلما علم أنها لجليبيب، تردّد وقال: حتى أستأمر أمها. فلما ذهب يستشير زوجته، رفضت المرأة رفضًا قاطعًا: لا والله لا نزوّج جليبيبًا! لكن الفتاة، وهي تسمع الحوار من الداخل، سألت: من خطبني؟ فلما عرفت أن رسول الله ﷺ هو من اختار لها، قالت لأبويها في ثقة عجيبة: أتردّون على رسول الله أمره؟ ادفعوني إليه فإنه لن يُضيّعني. فرضخا لرأيها، وزُوّجت جليبيبًا، وكانت راضية بذلك الاختيار كل الرضا.

استُشهد جليبيب في إحدى الغزوات، فلما انتهت المعركة سأل النبي ﷺ أصحابه: "هل تفقدون من أحد؟" فذكروا له من فُقد، حتى قال هو نفسه: "لكني أفقد جليبيبًا"، فمضى يبحث عنه بين القتلى حتى وجده مقتولًا إلى جانب سبعة من المشركين قتلهم قبل أن يُقتل، فوقف عليه النبي ﷺ وقال: "قتل سبعة ثم قتلوه، هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه"، يكررها إعلاءً من شأن رجل لم يكن له في ميزان الناس أي قدر يُذكر. ثم حمله

النبي ﷺ بذراعيه الشريفتين وحده، ليس على نعش ولا محمل، حتى تولى دفنه بيديه، وهو تكريم لم يُروَ مثله لأحد من الصحابة بهذا الشكل الحِسّي المباشر.

الوفاة

استُشهد جُليبيب في إحدى غزوات النبي ﷺ، واختلفت الروايات في تحديدها بدقة، لكنه خلّد في التاريخ الإسلامي كرمزٍ لأن ميزان الله لا يشبه موازين الناس في النسب والجاه والمال، وأن من لا يراه الناس شيئًا قد يكون عند الله وعند رسوله ﷺ من أخصّ الناس وأقربهم.

الباب الثاني: الأنصار

أهل المدينة من الأوس والخزرج، الذين آووا النبي ﷺ وأصحابه ونصروهم، فسمّاهم الله في كتابه الأنصار.

الفصل الأول

أنس بن مالك

خادم رسول الله ﷺ عشر سنين

النسب والنشأة

هو أنس بن مالك الأنصاري الخزرجي، ابن أم سُليم بنت مِلحان زوجة أبي طلحة، جاءت به أمه إلى النبي ﷺ وهو صبي في العاشرة من عمره حين قدم المدينة مهاجرًا وقالت: يا رسول الله، هذا أنس يخدمك، فقبله النبي ﷺ خادمًا له.

قصة الهداية والإسلام

نشأ أنس في كنف النبي ﷺ منذ صباه، فلم يعرف إسلامًا منفصلًا عن حياته كلها، بل كان إيمانه نسيجًا واحدًا مع سنوات خدمته الطويلة للنبي ﷺ نفسه.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

قال أنس عن سنواته العشر في خدمة النبي ﷺ: "خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، ولا قال لشيء صنعته: لِمَ صنعتَ كذا؟ ولا لشيء تركته: ألا صنعتَ كذا؟" شهادة فريدة على دماثة خلق النبي ﷺ مع أقرب الناس إليه يوميًّا، لا في المواقف الكبرى وحدها بل في تفاصيل العيش اليومي المضجرة أحيانًا لأي إنسان آخر.

ولقرب أنس الشديد من النبي ﷺ طوال تلك السنوات، صار أكثر الصحابة رواية لحديثه على الإطلاق، حاملًا للأمة تفاصيل لم يشهدها غيره من أدق تفاصيل حياة النبي ﷺ اليومية.

روايته للحديث وتلاميذه

روى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وتخرّج على يديه في البصرة جيل كامل من كبار التابعين، منهم قتادة بن دعامة والحسن البصري وثابت البُناني، الذين نقلوا عنه أدق تفاصيل حياة النبي ﷺ اليومية التي عاشها معه عن قرب طوال عشر سنين.

الوفاة

توفي أنس بن مالك في البصرة بالعراق سنة ثلاث وتسعين للهجرة تقريبًا (712م)، وهو يتجاوز المئة من عمره، فكان آخر من مات من الصحابة في البصرة، مستجابًا فيه دعاء النبي ﷺ بطول العمر كاملًا.

الفصل الثاني

زيد بن ثابت

كاتب الوحي وجامع القرآن

النسب والنشأة

هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي، فقد أباه قبل أن يكبر، ونشأ في المدينة يافعًا نجيبًا سريع الحفظ، حتى لفت نبوغه أنظار النبي ﷺ نفسه وهو لا يزال صبيًا.

قصة الهداية والإسلام

حاول زيد أن يلحق بالمسلمين في بدر وهو ابن إحدى عشرة سنة فرُدّ لصغره، وحاول مرة أخرى في أُحُد فرُدّ أيضًا، حتى أُذن له أخيرًا في الخندق وهو في الخامسة عشرة. ولمّا بلغ النبي ﷺ ذكاؤه وسرعة حفظه، طلب منه أن يتعلم لغة اليهود ليكتب له بها ويقرأ رسائلهم، فتعلمها في أسابيع قليلة، فصار من كتّاب الوحي المقرّبين، وسفير النبي ﷺ في لغته إلى اليهود والعجم.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

بعد معركة اليمامة، حين استُشهد فيها عدد كبير من حفظة القرآن كما مرّ في فصل خالد بن الوليد، خشي عمر بن الخطاب أن يذهب القرآن بذهاب حامليه، فألحّ على أبي بكر الصديق أن يأمر بجمعه في مصحف واحد. اختار أبو بكر زيدًا لهذه المهمة الجليلة لصغر سنه المقترن بحكمته، ولأنه كان يكتب الوحي للنبي ﷺ. قال زيد واصفًا هول التكليف: "والله لو كلّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما كلّفوني من جمع القرآن"، فجمعه من كل مصدر موثوق: من صدور الحفّاظ، ومما كُتب على العسب والرقاع وقطع الأديم، لا يقبل آية إلا بشاهدين.

ثم أعاد الكَرّة في عهد عثمان بن عفان، حين كثر اختلاف الناس في القراءات باتساع الفتوح، فترأس لجنة كتابة المصحف الإمام الموحّد الذي أُرسل إلى الأمصار، فصار النص الذي بين أيدي المسلمين اليوم في أنحاء الأرض جميعًا أثرًا مباشرًا لجهد زيد بن ثابت مرتين متتاليتين. وقد قال فيه النبي ﷺ في حديث عدّ فيه اختصاصات أصحابه: "أفرضكم زيد"، أي أعلمهم بعلم الفرائض والمواريث.

روايته للحديث وتلاميذه

كان زيد بن ثابت أحد الفقهاء السبعة الذين اشتهروا بالفتوى في المدينة بعد النبي ﷺ، وتخرّج على يديه جمع من التابعين، منهم ابنه خارجة بن زيد الذي صار لاحقًا أحد أولئك الفقهاء السبعة أنفسهم.

مدرسته الفقهية وآراؤه

اشتهر زيد بن ثابت تحديدًا بعلم الفرائض والمواريث حتى شهد له النبي ﷺ بقوله: "أفرضكم زيد"، فصار مرجع الصحابة والتابعين في قسمة التركات وحساب الأنصبة الشرعية.

الوفاة

توفي زيد بن ثابت في المدينة المنورة سنة خمس وأربعين للهجرة تقريبًا (665م)، بعد أن ترك للأمة أثرًا لا يُدانيه أثر آخر في حفظ نص القرآن الكريم كما هو متداول إلى اليوم.

الفصل الثالث

سعد بن معاذ

الذي اهتزّ العرش لموته

النسب والنشأة

هو سعد بن معاذ بن النعمان الأشهلي، من بني عبد الأشهل، بطن من الأوس، وكان سيد قومه المطاع فيهم، معروفًا بالحزم والهيبة قبل الإسلام وبعده.

قصة الهداية والإسلام

أسلم سعد على يد مصعب بن عمير، كما مرّ في قصة الأخير، حين أقبل عليه غاضبًا حاملًا حربته ليزجره عن دعوة قومه، فما إن استمع إليه حتى أسلم، ثم مضى إلى قومه بني عبد الأشهل معلنًا أن كلامهم عليه حرام حتى يؤمنوا، فأسلم الحي كله في يوم واحد، حادثة تُعدّ من أسرع انتشار للإسلام جماعيًّا في المدينة كلها.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

قاد سعد الأوس في بدر وأُحُد، وفي غزوة الخندق أصابه سهم في ذراعه قطع منه عرقًا رئيسًا، فأمر النبي ﷺ بضرب خيمة له في المسجد ليمرّضه بنفسه، ودعا سعد ربه دعاءً عجيبًا: اللهم إن كانت بقيت من حرب قريش بقية فأبقني لها، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ولا تُمتني حتى تُقرّ عيني من بني قريظة.

ولمّا حاصر المسلمون بني قريظة بعد نقضهم العهد أثناء الخندق، طلبت قريظة أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، حليفهم القديم قبل الإسلام، ورضوا بحكمه مسبقًا. فحُمل سعد وهو جريح على حمار إلى موضع الحصار، فحكم فيهم بحكم التوراة في القبيلة المحاربة الناقضة للعهد: أن تُقتل مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم، وتُقسم أموالهم. فقال له النبي ﷺ: "لقد حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة"، تصديقًا نبويًّا على أن حكمه وافق حكم الله نفسه.

انتقض جرح سعد بعد ذلك الجهد الكبير فمات متأثرًا به، فحزن النبي ﷺ عليه حزنًا شديدًا ومشى في جنازته، وقال حين بلغه خبر وفاته الكلمة التي تفرّد بها بين كل الصحابة: "اهتزّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ."

الوفاة

توفي سعد بن معاذ في المدينة المنورة عقب غزوة بني قريظة سنة خمس للهجرة (627م) متأثرًا بجرحه في الخندق، ودُفن بالبقيع، وشيّعه النبي ﷺ بنفسه في جنازة مهيبة.

الفصل الرابع

معاذ بن جبل

أعلم الأمة بالحلال والحرام

النسب والنشأة

هو معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي، من بني سلمة، شابٌّ طويل القامة، حسن الوجه، جوادًا حتى أثقلته الديون من كثرة عطائه، وكان من أبرز شباب الأنصار قبل الإسلام وبعده.

قصة الهداية والإسلام

أسلم معاذ وهو في العشرين من عمره تقريبًا، ضمن أوائل من بايع النبي ﷺ من الأنصار في العقبة، فنشأ إسلامه مع نشأة الدولة الإسلامية في المدينة نفسها، لا وافدًا عليها من مكة كغيره من كبار الصحابة.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

حين أراد النبي ﷺ أن يبعث معاذًا قاضيًا ومعلّمًا إلى اليمن، سأله: "كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟" قال: أقضي بكتاب الله. قال: "فإن لم تجد في كتاب الله؟" قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: "فإن لم تجد في سنة رسول الله ولا في كتاب الله؟" قال: أجتهد رأيي ولا آلو. فضرب النبي ﷺ صدره وقال: "الحمد لله الذي وفّق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله." فصار هذا الحوار القصير أصلًا من أعظم أصول التشريع الإسلامي، يُبنى عليه ترتيب مصادر الفقه: القرآن، فالسنة، فالاجتهاد.

كما أخذ النبي ﷺ بيد معاذ يومًا وقال له: "والله إني لأحبك، فلا تدعنّ في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"، وهي وصية حملها معاذ معه بقية عمره. وقد عدّه النبي ﷺ في حديثه المشهور عن خصائص أصحابه أعلمَهم بالحلال والحرام، فقال: "أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل."

الوفاة

توفي معاذ بن جبل في طاعون عمواس بالشام سنة ثماني عشرة للهجرة (639م)، بعد أن شيّع أبناءه واحدًا واحدًا قبله في الوباء نفسه، فكانت وفاته خاتمة مأساة عائلية صبر عليها صبرًا جميلًا حتى النهاية.

الفصل الخامس

أُبيّ بن كعب

الذي أمر الله نبيّه أن يقرأ عليه القرآن

النسب والنشأة

هو أُبيّ بن كعب الأنصاري الخزرجي، من كبار الأنصار وعلمائهم، وكان قبل الإسلام من القلائل الذين يعرفون القراءة والكتابة في المدينة، فأهّله ذلك لاحقًا ليكون أحد كتّاب الوحي للنبي ﷺ.

قصة الهداية والإسلام

أسلم أُبيّ مبكرًا مع أوائل الأنصار، وكرّس نفسه من ساعتها لحفظ القرآن وتدارسه حتى صار إمام القرّاء بلا منازع، ولقّبه أصحابه بـ"سيد القرّاء".

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

من أعجب ما خُصّ به أُبيّ بن كعب بين الصحابة جميعًا أن النبي ﷺ قال له يومًا: "إن الله أمرني أن أقرأ عليك: لم يكن الذين كفروا..." (أول سورة البيّنة)، فبكى أُبيّ من هول ما سمع وقال: يا رسول الله، وسمّاني الله لك؟ قال: "نعم، سمّاك الله لي"، فبكى أُبيّ فرحًا. وهذا الحديث فريد بين كل ما رُوِي من فضائل الصحابة: أن يأمر الله نبيّه صراحة بأن يقرأ القرآن على صحابي بعينه، تكريمًا لا يُعرف له نظير عند أحد غيره.

كان أُبيّ أيضًا من الذين جمعوا القرآن كاملًا في حياة النبي ﷺ نفسه، واعتمد عليه زيد بن ثابت اعتمادًا كبيرًا لاحقًا عند جمع المصحف في عهد أبي بكر ثم عثمان، حتى صارت قراءته وروايته من أوثق الروايات المعتمدة في تاريخ القرآن.

الوفاة

اختلفت الروايات في تاريخ وفاة أُبيّ بن كعب بين أواخر خلافة عمر بن الخطاب وأوائل خلافة عثمان بن عفان، وإن كان أغلب المؤرخين يميلون إلى أنه توفي في المدينة المنورة في حدود سنة تسع عشرة إلى ثنتين وثلاثين للهجرة، تاركًا إرثًا قرآنيًا لا يُضاهى.

الفصل السادس

جابر بن عبد الله الأنصاري

راوي حجة الوداع وابن شهيد أُحُد

النسب والنشأة

هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري، ابن الصحابي الذي استُشهد يوم أُحُد إلى جانب صهره عمرو بن الجموح، وكان جابر لا يزال فتى حين طلب أبوه منه أن يبقى في المدينة ليرعى أخواته بدلًا من الخروج معه إلى المعركة التي كان أبوه يتوقع فيها الشهادة.

قصة الهداية والإسلام

نشأ جابر في بيت أنصاري مؤمن، وحضر بيعة العقبة صبيًّا مع أبيه، فكان من أصغر من شهدوها سنًّا.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

عاش جابر عمرًا مديدًا لازم فيه النبي ﷺ ملازمة طويلة رغم فقدانه أباه مبكرًا، حتى صار من أوسع الصحابة علمًا برواية تفاصيل حجة النبي ﷺ الوداعية، وروايته الطويلة عن تلك الحجة من أهم المصادر التي بُنيت عليها أحكام مناسك الحج في الفقه الإسلامي كله.

الوفاة

توفي جابر بن عبد الله الأنصاري في المدينة المنورة في حدود سنة ثمان وسبعين للهجرة (697م)، بعد أن عاش عمرًا طويلًا جعله آخر من بقي من كبار صحابة الأنصار في المدينة.

الفصل السابع

أبو أيوب الأنصاري

مضيف الهجرة وحارس أسوار القسطنطينية

النسب والنشأة

هو خالد بن زيد الأنصاري الخزرجي، المعروف بكنيته أبو أيوب، من كبار الأنصار الذين شهدوا العقبة وبدرًا وما بعدها، رجلٌ عُرف بالكرم والمغامرة معًا طوال حياته.

قصة الهداية والإسلام

أسلم أبو أيوب مبكرًا مع الأنصار، وكانت له مع النبي ﷺ لحظة فريدة عند الهجرة: حين دخل النبي ﷺ المدينة، تسابق وجهاء الأنصار كلٌّ يريد أن يكون مضيفه، فترك النبي ﷺ الأمر لناقته قصواء تسير حيث شاء الله لها، حتى بركت أخيرًا عند باب دار أبي أيوب الأنصاري، فكان بذلك أسعد الناس بضيافة النبي ﷺ سبعة أشهر كاملة حتى تم بناء المسجد وحُجَره.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

في أول ليلة لضيافته، أصرّ أبو أيوب أن ينزل النبي ﷺ الطابق العلوي من داره وينزل هو وأهله السفلي إجلالًا له، لكنه ما إن نام تلك الليلة حتى أرّقه القلق أن يمشي هو أو أهله فوق رأس النبي ﷺ، حتى إنه وزوجته باتا في جانب واحد من الدار خشية أن يعبرا فوق موضعه، فلما استيقظ ألحّ على النبي ﷺ أن يتبادلا الطابقين، فأجابه النبي ﷺ إلى طلبه رفقًا بقلبه المضطرب.

ولم يكن أبو أيوب رجل استقرار، بل ظل طوال عمره متلهفًا للجهاد أينما دُعي إليه، حتى في شيخوخته المتأخرة. ففي سنة اثنتين وخمسين للهجرة، وهو في الثمانين من عمره تقريبًا، خرج مع أول حملة إسلامية لحصار القسطنطينية عاصمة الروم، فمرض في أثناء الحصار ودنت وفاته، فسأله قائد الجيش عن وصيته، فقال: أبلغوا معاوية أن يدفنني في أقرب موضع من أرض العدو يستطيعه، فحُمل جثمانه حتى وارَوه قريبًا جدًّا من أسوار المدينة، وسط زحف الجيش الإسلامي نفسه.

وبقي قبره هناك على مرّ القرون، حتى فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية بعد ثمانمائة عام تقريبًا من وفاته، فأُعيد الاعتناء بضريحه وبُني عليه مسجد يحمل اسمه إلى اليوم في قلب إسطنبول، فتحقق حلمه بأن يكون أقرب الناس إلى تلك المدينة التي طالما تاق المسلمون الأوائل إلى فتحها.

غزواته ومشاهده

لم يتخلف أبو أيوب الأنصاري عن غزوة واحدة غزاها النبي ﷺ، ثم واصل الغزو بعده في كل عام تقريبًا حتى شيخوخته المتأخرة، فشهد فتوحات الشام ومصر وشمال أفريقيا، وختم حياته في أول حصار إسلامي للقسطنطينية.

الوفاة

توفي أبو أيوب الأنصاري قرب أسوار القسطنطينية سنة اثنتين وخمسين للهجرة (672م) في أثناء الحصار الإسلامي الأول لها، ودُفن هناك بوصيته، فصار قبره أحد أقدم الشواهد على تطلع الصحابة إلى فتوح لم يُكتب لهم أن يروها بأعينهم.

الفصل الثامن

حسّان بن ثابت

شاعر رسول الله ﷺ

النسب والنشأة

هو حسّان بن ثابت الأنصاري الخزرجي، عاش عمرًا مديدًا جاوز المئة عام، فأدرك الجاهلية شاعرًا يمدح ملوك الغساسنة، ثم أدرك الإسلام فصار أشهر شعرائه على الإطلاق.

قصة الهداية والإسلام

أسلم حسّان مع الأنصار، وسخّر موهبته الشعرية التي صقلها في الجاهلية لخدمة الدعوة الجديدة، فوجد في الدفاع عن النبي ﷺ بالكلمة ميدانًا يليق بلسانه البارع.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

حين هجا شعراء قريش النبي ﷺ والمسلمين، طلب النبي ﷺ من حسّان أن يردّ عليهم بالمثل، وقال له: "اهجهم، أو هاجهم، وروح القدس معك"، بل خصّه بمنبر يقوم عليه في المسجد ينافح فيه عن النبي ﷺ بالشعر أمام الناس، تكريمًا لم يُخصّ به شاعر آخر. وقال فيه النبي ﷺ أيضًا: "إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله."

لكن حسّان، مع كل هذا الفضل، لم يكن معصومًا من الزلل: فقد كان أحد من خاضوا في حديث الإفك الذي اتُّهمت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ظلمًا وبهتانًا، فنزلت براءتها من فوق سبع سماوات في سورة النور، وأُقيم على حسّان ومن شاركه في الخوض حدّ القذف، فتحمّل عقوبته، ثم تاب واستغفر، وعاد بعدها ذلك اللسان نفسه يمدح آل البيت ويدافع عنهم بحرارة لا تقل عن ندمه على تلك الزلة، فكانت سيرته شاهدًا على أن الفضل الكبير لا يعصم من خطأ عارض، وأن التوبة الصادقة يمكن أن تعيد الإنسان إلى منزلته الأولى.

الوفاة

توفي حسّان بن ثابت في المدينة المنورة في حدود سنة أربع وخمسين للهجرة (674م)، بعد أن عاش ليشهد ثلاثة عصور متعاقبة: الجاهلية، وصدر الإسلام، وصدرًا من عهد بني أمية.

الفصل التاسع

سعد بن عبادة

سيد الخزرج وأكرم أهل المدينة

النسب والنشأة

هو سعد بن عبادة بن دُليم الخزرجي الأنصاري، سيد الخزرج المطاع فيهم، وأحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم النبي ﷺ ليلة العقبة الثانية، واشتهر بكرم لا يُضاهى حتى صار مضرب المثل فيه بين العرب.

قصة الهداية والإسلام

أسلم سعد بن عبادة مع نقباء الأنصار في العقبة، وكان من أشد المتحمسين لنصرة النبي ﷺ ودعوته إلى الهجرة إلى المدينة، واثقًا من قدرة قومه على حمايته وحماية أصحابه.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

عُرف بيت سعد بن عبادة بأنه لا يخلو أبدًا من طعام مُعدّ لأي عابر سبيل أو محتاج، حتى كان له مناد يصيح كل يوم من فوق داره يدعو الناس إلى طعامه، فلا يبيت في المدينة جائع يعرف بيت سعد إلا وقد أكل منه. حمل سعد راية الأنصار في عدد من الغزوات الكبرى، وعلى رأسها فتح مكة، شاهدًا على مكانته القيادية الرفيعة بين قومه.

كان من أكرم الصحابة على الإطلاق، حتى رُوِي أنه كان يقول إنه ليستحي أن يأكل طعامًا وحده لا يشاركه فيه أحد، فجعل كرمه سنة يعرفها كل من سكن المدينة في عهده.

الوفاة

توفي سعد بن عبادة في بلاد الشام في عهد عمر بن الخطاب، في حدود سنة خمس عشرة للهجرة، بعيدًا عن المدينة التي طالما أطعم فقراءها وعابري سبيلها من كرمه الذي لم ينضب.

الفصل العاشر

أبو سعيد الخدري

ابن شهيد أُحُد الذي صار مرجعًا للفتوى

النسب والنشأة

هو سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري، استُشهد أبوه يوم أُحُد، فنشأ يتيمًا في كنف أمه وقومه.

قصة الهداية والإسلام

حاول أبو سعيد أن يلحق بأُحُد وهو صبي صغير فرُدّ لصغر سنه، كما رُدّ غيره من فتيان الأنصار في المعركة نفسها، حتى أُجيز لاحقًا فشهد اثنتي عشرة غزوة مع النبي ﷺ.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

عُرف أبو سعيد الخدري بدقة روايته وورعه الشديد في الفتوى، حتى صار من كبار مفتي المدينة بعد النبي ﷺ، ينقل عنه الفقهاء والتابعون في مختلف أبواب الفقه، بعد أن جمع بين ملازمة النبي ﷺ الطويلة وحفظه الدقيق لأقواله.

الوفاة

توفي أبو سعيد الخدري في المدينة المنورة في حدود سنة أربع وسبعين للهجرة (693م)، تاركًا إرثًا فقهيًّا وحديثيًّا غزيرًا استفاد منه أجيال التابعين بعده.

الفصل الحادي عشر

أبو طلحة الأنصاري

الذي تصدّق بأحبّ أمواله إليه

النسب والنشأة

هو زيد بن سهل الأنصاري الخزرجي، المعروف بكنيته أبو طلحة، من فرسان الأنصار وأشدّهم بأسًا في الرماية.

قصة الهداية والإسلام

قبل إسلامه، تقدّم أبو طلحة لخطبة أم سُليم بنت مِلحان، وهي امرأة أسلمت مبكرًا، فرفضت أن تتزوجه وهو مشرك، وقالت له: إن مهري إسلامك، لا أريد سواه. فأسلم أبو طلحة من أجلها، وقال بعض من علم بالخبر: ما سمعنا بمهر قط كان أعظم منه، إسلام رجل كامل مهرًا لامرأة. فتزوجها على ذلك المهر الفريد.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

كان لأبي طلحة أحبّ أمواله إليه: بستان نخل يُقال له "بيرُحاء"، يقع مقابل المسجد النبوي، وكان النبي ﷺ يدخله ويشرب من مائه العذب. فلما نزل قول الله تعالى: "لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ"، قام أبو طلحة من فوره إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن أحبّ أموالي إليّ بيرُحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال النبي ﷺ: "بخٍ، ذلك مال رابح"، وأشار عليه أن يجعلها في أقاربه، ففرّقها أبو طلحة بين بني عمه.

وفي أُحُد، كان أبو طلحة يذبّ عن النبي ﷺ بصدره وقوسه معًا، حتى كُسرت في يده قِسِيّ كثيرة من شدة رميه، وكان يقول للنبي ﷺ حين يمدّ عنقه لينظر إلى العدو: نحري دون نحرك يا رسول الله، لا يصيبك سهم من سهامهم، حماية له بجسده كاملًا.

الوفاة

توفي أبو طلحة الأنصاري في عهد عثمان بن عفان تقريبًا، وذكر بعض الرواة أنه توفي في سفينة أثناء غزوة بحرية وهو في عمر متقدم، فبقي جثمانه أيامًا لم يتغيّر حتى وارَوه الثرى، وهي رواية تُروى في مناقبه وإن اختلف المؤرخون في تفاصيلها الدقيقة.

الفصل الثاني عشر

عبد الله بن رواحة

شاعر استقبل الموت بقصيدة

النسب والنشأة

هو عبد الله بن رواحة الخزرجي الأنصاري، أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم النبي ﷺ من الأنصار ليلة العقبة الثانية نقباء على قومهم، وكان – إلى جانب حسّان بن ثابت وكعب بن مالك – أحد شعراء الإسلام الثلاثة الذين نافحوا عن الدعوة بالكلمة كما نافح غيرهم بالسيف.

قصة الهداية والإسلام

أسلم عبد الله بن رواحة مبكرًا مع نقباء الأنصار، وكرّس شعره لخدمة الدين الجديد، فكان إذا قام بين يدي النبي ﷺ ينشد، شهد له النبي ﷺ بصدق لسانه كما شهد لحسّان.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

في غزوة مؤتة، كان عبد الله بن رواحة القائد الثالث الذي عيّنه النبي ﷺ بعد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، يعلم علم اليقين أنه يخرج بجيش لا يتجاوز الثلاثة آلاف لملاقاة جموع الروم التي تُقدِّر بعشرات الآلاف. وفي الطريق، أنشد قصيدة يخاطب فيها نفسه، يعالج بها ترددها الطبيعي أمام هول ما ينتظرها: "يا نفسُ إلّا تُقتلي تموتي، هذا حِمامُ الموتِ قد صَليتِ"، مؤكدًا لنفسه أن الموت آتٍ لا محالة، عاجلًا بشهادة أو آجلًا بحتفٍ على فراش، فليكن الأول أكرم الخيارين.

حين استُشهد زيد ثم جعفر، أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ويُروى أنه تردد لحظة قصيرة قبل أن يتقدم، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك بالوحي وهو في المدينة يصف المشهد كأنه يراه رأي العين، فقال: "ثم أخذها ابن رواحة، وفيه بعض التلكّؤ"، لكنه تجاوز تلك اللحظة الإنسانية العابرة من التردد، واندفع يقاتل حتى استُشهد ثالث القادة الثلاثة في يوم واحد.

الوفاة

استُشهد عبد الله بن رواحة في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة (629م)، ثالث ثلاثة قادة سقطوا واحدًا بعد آخر في معركة واحدة، ودُفن معهم في أرض مؤتة.

الفصل الثالث عشر

كعب بن مالك

صاحب التوبة التي ضاقت لها الأرض بما رحبت

النسب والنشأة

هو كعب بن مالك الخزرجي الأنصاري، أحد شعراء الإسلام الثلاثة إلى جانب حسّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، شهد العقبة ومعظم المشاهد إلا بدرًا وغزوة تبوك، وفي تخلّفه عن الأخيرة كانت أعظم قصص حياته.

قصة الهداية والإسلام

أسلم كعب مع نقباء الأنصار مبكرًا، وكان من أهل اليسار والقدرة، لا يمنعه عن الجهاد عذر ظاهر، وهو ما جعل تخلّفه عن تبوك لاحقًا أشدّ وقعًا على نفسه وعلى الجماعة المسلمة كلها.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

تخلّف كعب بن مالك عن غزوة تبوك دون عذر يُذكر، مع قدرته التامة على الخروج، فلما عاد النبي ﷺ من الغزوة وسأل المتخلفين عن أعذارهم، اعترف كعب وصاحباه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع بصدق أنهم تخلّفوا كسلًا لا عذر لهم فيه، فأمر النبي ﷺ بمقاطعتهم مقاطعة تامة: لا يكلمهم أحد من المسلمين خمسين ليلة، حتى زوجاتهم أُمرن بالبعد عنهم.

يصف كعب بنفسه تلك الأيام وصفًا لا يُنسى: ضاقت عليه الأرض بما رحبت، حتى صار يشعر أنه غريب بين قومه الذين يعرفهم منذ صباه، وضاقت عليه نفسه حتى ظنّ ألا ملجأ من الله إلا إليه. استمر الحال خمسين يومًا كاملة، حتى سمع من يناديه من أعلى جبل يبشّره بأن الله قد تاب عليه، فخرّ ساجدًا شكرًا، ونزل قول الله تعالى في سورة التوبة يصف تلك اللحظة بالضبط كما عاشها: "وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا."

هرع كعب إلى المسجد، فوجد وجه النبي ﷺ يتهلّل فرحًا، وقال له مهنّئًا: "أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك." فأراد كعب أن يتصدّق بكل ماله شكرًا لله، فقال له النبي ﷺ: "أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك."

الوفاة

توفي كعب بن مالك في المدينة المنورة في حدود سنة خمسين للهجرة (670م)، بعد أن عاش عمرًا مديدًا شهد فيه صدر الإسلام كاملًا، تاركًا قصة توبته إحدى أعمق القصص الإنسانية في القرآن والسيرة معًا.

الفصل الرابع عشر

سهل بن سعد الساعدي

آخر من بقي بالمدينة من الصحابة

النسب والنشأة

هو سهل بن سعد الساعدي الأنصاري، كان لا يزال صبيًّا صغيرًا في أواخر حياة النبي ﷺ، فلم يشهد من الغزوات الكبرى شيئًا، لكنه عاش عمرًا مديدًا جعله شاهدًا حيًّا على عصر النبوة كله رغم صغر سنه فيه.

قصة الهداية والإسلام

نشأ سهل في بيت أنصاري مسلم، وحفظ في ذاكرته وهو صغير تفاصيل كثيرة عن حياة النبي ﷺ اليومية في المدينة، كبناء المنبر وتفاصيل المسجد النبوي في عهده الأول.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

روى سهل بن سعد أحاديث كثيرة عن مشاهداته الصبيانية للنبي ﷺ، وبفضل طول عمره صار أهل المدينة يقصدونه لسؤاله عن تفاصيل دقيقة من حياة النبي ﷺ شهدها بعينيه وهو غلام صغير، فكان جسرًا حيًّا بين جيل الصحابة وأجيال التابعين اللاحقة.

الوفاة

توفي سهل بن سعد الساعدي في المدينة المنورة في حدود سنة ثمان وثمانين للهجرة (707م)، وهو يتجاوز المئة من عمره، فكان آخر من بقي حيًّا من الصحابة في المدينة المنورة.

الفصل الخامس عشر

أسيد بن حضير

الذي استمعت الملائكة لقرآنه

النسب والنشأة

هو أسيد بن حضير الأنصاري الأوشي، أحد سيدي الأوس مع سعد بن معاذ، وكان أول من أسلم منهما على يد مصعب بن عمير كما مرّ في موضعه.

قصة الهداية والإسلام

بعد أن أقبل على مصعب غاضبًا بحربته يريد زجره، استمع إليه فأسلم، ثم مضى بنفسه إلى صاحبه سعد بن معاذ فأسلم هو الآخر، فكان أسيد بذلك سببًا مباشرًا في إسلام حيّ الأوس كله تقريبًا.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

بينما كان أسيد يقرأ سورة الكهف ذات ليلة في داره، جالت فرسه المربوطة قريبًا منه واضطربت، فلما توقف عن القراءة سكنت، فلما عاد يقرأ اضطربت من جديد، فرفع رأسه فرأى كالظُّلّة فوقه فيها أمثال المصابيح، ارتفعت في السماء حتى غابت عن بصره. فلما أخبر النبي ﷺ بما رأى، قال له: "تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستترُ منهم."

الوفاة

توفي أسيد بن حضير في المدينة المنورة في عهد عمر بن الخطاب، في حدود سنة عشرين للهجرة (641م)، بعد أن كان طوال حياته من أقرب الأنصار محبة إلى النبي ﷺ وأكثرهم حكمة في فضّ ما ينشب بينهم من خلاف.

الفصل السادس عشر

أبو دُجانة

صاحب العصابة الحمراء الذي درع النبي ﷺ بظهره

النسب والنشأة

هو سِماك بن خَرَشة الأنصاري، عُرف بلقبه أبو دُجانة، وكان معروفًا في المدينة بشجاعة نادرة وبعادة يتميّز بها في القتال: عصابة حمراء يربطها على رأسه حين يعزم على قتال لا هوادة فيه، فكانت إشارة يعرفها كل من رآه أنه لن يتراجع.

قصة الهداية والإسلام

أسلم أبو دُجانة مع من أسلم من الأنصار، وسرعان ما صار من أشد المقاتلين بأسًا في صفوف المسلمين.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

يوم أُحُد، رفع النبي ﷺ سيفه وقال: من يأخذ هذا بحقه؟ فتطلع إليه رجال كثيرون، فقال أبو دُجانة: وما حقه يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به في العدو حتى ينحني. قال: أنا آخذه بحقه، فأخذه وشدّ عصابته الحمراء على رأسه، وتقدّم يخطر بين الصفوف، فقال النبي ﷺ: إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن. ولما انكشف بعض الصف حول النبي ﷺ في أشد لحظات المعركة خطرًا، أحاط أبو دُجانة النبي ﷺ بظهره، فكانت النِّبال تقع في ظهره وهو لا يتحرك، فداءً بجسده كله عن جسد النبي ﷺ.

الوفاة

اختُلف في تاريخ وفاة أبي دُجانة، وذكر بعض المؤرخين أنه استُشهد في معركة اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة (633م) في حروب الردة، حاملًا معه إلى آخر لحظة السمعة نفسها التي عُرف بها يوم أُحُد: رجل لا يعرف التراجع.

الفصل السابع عشر

البراء بن مالك

الذي قذف بنفسه فوق سور حديقة الموت

النسب والنشأة

هو البراء بن مالك الأنصاري، أخو أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، وكان من أشجع الصحابة وأشدّهم إقدامًا في ساحات القتال، حتى صار اسمه مقترنًا بالبطولة النادرة في كل معركة خاضها.

قصة الهداية والإسلام

نشأ البراء في بيت أنصاري أسلم بأكمله مبكرًا، فحمل معه إلى ساحات الجهاد جرأة استثنائية ميّزته عن أقرانه، حتى قيل فيه إنه لو أقسم على الله في أمر لأبرّ الله قسمه، لصدق يقينه وقوة إيمانه.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

في معركة اليمامة، تحصّن جند مسيلمة الكذّاب داخل حديقة مسوّرة عُرفت بعدها بـ"حديقة الموت" لكثرة من سقط حولها، واستعصى على المسلمين اقتحامها لإحكام إغلاق بابها من الداخل. فطلب البراء بن مالك من إخوانه أن يحملوه على تُرس ويقذفوا به من فوق السور إلى داخل الحديقة وحده وسط جموع العدو، وهو يعلم أن معنى ذلك قتال عشرات الرجال بمفرده لحظات قبل أن يصل إليه مدد. ففعلوا، فقاتل وحده حتى شقّ طريقه إلى الباب ووجد سبيله لفتحه من الداخل رغم كثرة جراحه، فانهال المسلمون من خلفه داخل الحديقة، فتحوّل مسار المعركة كلها بفضل تلك المخاطرة الفردية الجسورة. أُحصيت جراحه بعدها بالعشرات، فلزم فراشه شهرًا كاملًا حتى برئ.

الوفاة

نجا البراء بن مالك من جراحه في اليمامة، واستمر بعدها سنوات يقاتل في فتوحات فارس بالجرأة نفسها التي عُرف بها، حتى لقي ربه شهيدًا في إحدى تلك المعارك في عهد عمر بن الخطاب، مستجيبًا لدعائه المتكرر بأن يُختم له بالشهادة كما فُتح له باب حديقة الموت من قبل.

الفصل الثامن عشر

عمرو بن الجموح

الشيخ الأعرج الذي وطئ الجنة بعرجته

النسب والنشأة

هو عمرو بن الجموح بن زيد، سيد بني سلمة من الخزرج، وكان شيخًا كبيرًا شديد العرج، وكان قبل إسلامه قد نصب في داره صنمًا من خشب يعبده كعادة أشراف قومه.

قصة الهداية والإسلام

لما أسلم أبناؤه، كانوا يأخذون صنمه ليلًا فيلقونه في حفرة قذرة أو بئر، فيصبح فيبحث عنه فيجده، فيغسله ويعيده إلى مكانه غاضبًا: ويلكم من فعل هذا بآلهتنا! حتى أخذوه مرة وربطوه إلى جيفة كلب ميت وألقوه في بئر، فلما رآه عمرو على تلك الحال أدرك عجزه التام عن حماية نفسه فضلًا عن حماية عابديه، فأسلم من فوره وقال شعرًا يهجو فيه ذلك الصنم الذي عبده جهلًا سنين طويلة.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

لما دُعي الناس إلى الخروج يوم أُحُد، حاول أبناء عمرو بن الجموح الأربعة منعه من الخروج لشدة عرجه، فذهب إلى النبي ﷺ يسأله: إن بنيّ يمنعونني الخروج معك وأنا والله أرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة، أفلا أخرج فأجاهد في سبيل الله؟ فقال له النبي ﷺ: أما أنت فقد عذرك الله، ولا جهاد عليك. لكن عمرو رفع يديه ودعا: اللهم ارزقني الشهادة ولا تردني إلى أهلي خائبًا، ثم خرج فقاتل حتى استُشهد إلى جانب ابنه خلاد وصهره عبد الله بن عمرو بن حرام.

الوفاة

استُشهد عمرو بن الجموح في غزوة أُحُد سنة ثلاث للهجرة (625م)، وحين أرادت زوجته حَمل جثمانه إلى المدينة على بعير، أبى البعير أن يسير إلا نحو أُحُد، ففُهم ذلك إشارة إلى أن مكانه هناك، فدُفن في أرض المعركة إلى جانب ابنه وصهره، محققًا دعاءه بالشهادة رغم عرجه الذي ظنّه الناس عذرًا كافيًا للقعود.

الفصل التاسع عشر

حنظلة بن أبي عامر

غسيل الملائكة

النسب والنشأة

هو حنظلة بن أبي عامر الأنصاري الأوشي، وقصته تبدأ من مفارقة أليمة في نسبه: فأبوه، المعروف بـ"أبي عامر الراهب"، كان زعيمًا دينيًّا نصرانيّ النزعة في المدينة قبل الإسلام، فلما جاء النبي ﷺ رفض دعوته رفضًا تامًّا، بل قاتل المسلمين مع المشركين يوم أُحُد، ثم فرّ بعدها إلى الروم يحرّضهم على قتال المسلمين حتى مات في الشام طريدًا منبوذًا. أما ابنه حنظلة، فسار في الاتجاه المضاد تمامًا لأبيه، فآمن بمحمد ﷺ إيمانًا كاملًا، في مفارقة تكشف أن الهداية لا تُورَث بالدم.

قصة الهداية والإسلام

أسلم حنظلة مبكرًا مع شباب الأنصار، ولم يمنعه موقف أبيه العدائي من الإسلام من الثبات على دينه، بل ازداد تمسكًا به وكأنه يعوّض بإيمانه ما فرّط فيه والده.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

تزوج حنظلة ليلة معركة أُحُد نفسها، فلم يمهله القدر حتى ليلة عرسه الأولى، إذ فوجئ بنداء الاستنفار للمعركة في صبيحة تلك الليلة، فخرج مسرعًا للقتال دون أن يغتسل، مؤثرًا نداء الجهاد على راحة العرس.

قاتل حنظلة في أُحُد قتال الأبطال حتى استُشهد. وبعد المعركة، قال النبي ﷺ لأصحابه: "إني رأيت الملائكة تغسّل حنظلة بين السماء والأرض بماء المُزن، في صحائف من فضة"، فبُعث إلى زوجته يُسأل عن حاله، فأخبرت أنه خرج من فوره وهو جُنُب لم يغتسل حين سمع الهائعة، فعُلم أن الملائكة تولّت غسله بدلًا منه إكرامًا له، ومن يومها عُرف بلقبه الخالد: "غسيل الملائكة"، وهو لقب لم يُشارك فيه أحد من الصحابة على الإطلاق.

وهكذا اجتمع في أُحُد وحده ثلاثة من أبطال هذا الكتاب: حمزة أسد الله، ومصعب فتى مكة الزاهد، وحنظلة غسيل الملائكة، شهداء تحت جبل واحد في يوم واحد، كل منهم يحمل قصة مختلفة تمامًا عن الأخرى.

الوفاة

استُشهد حنظلة بن أبي عامر في غزوة أُحُد سنة ثلاث للهجرة (625م) في ليلة زفافه نفسها، ودُفن في أرض المعركة إلى جوار إخوانه الشهداء، حاملًا معه إلى قبره شرف تغسيل لم يُغسّله فيه غير الملائكة.

الفصل العشرون

عاصم بن ثابت

حِمِي الدَّبْر

النسب والنشأة

هو عاصم بن ثابت الأنصاري، فارس مشهور بالشجاعة والبأس، شارك في المهمة نفسها التي شارك فيها خبيب وزيد بن الدثنة، فلما غدرت بهم القبيلة رفض عاصم الاستسلام.

قصة الهداية والإسلام

كان عاصم قد آلى على نفسه ألا يمسّ مشركًا ولا يُمسّه مشرك أبدًا بعد أن قتل بعض صناديدهم، وفاءً منه بعهد قطعه على نفسه.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

حين طلب منه المشركون الاستسلام ليأسروه كما أسروا صاحبيه، قاتل حتى استُشهد وفاءً بعهده. أراد المشركون بعد مقتله أن يقطعوا رأسه أو أطرافه ليبيعوها لبعض نساء قريش اللواتي فقدن أبناءهنّ على يديه في بدر، فبعث الله سِربًا من الدَّبْر (النحل أو الزنابير) أحاط بجثته وأحال بينهم وبينها، حتى عجزوا عن الاقتراب منه، ثم جاء سيل جارف فحمل جثمانه بعيدًا، فلم يصلوا إليه بعد ذلك أبدًا، فتحقق نذره: ألا يمسّه مشرك حيًّا ولا ميتًا.

الوفاة

استُشهد عاصم بن ثابت في حادثة الرجيع سنة أربع للهجرة (625م)، ولُقّب بعدها بـ"حِمِي الدَّبْر"، إذ حمته حشرات صغيرة بعد موته حين عجز الأحياء من حوله عن حمايته.

الفصل الحادي والعشرون

خُبيب بن عدي وزيد بن الدثنة

أسيرا الرجيع اللذان علّما قريشًا معنى الحب

النسب والنشأة

هما خُبيب بن عدي الأنصاري، وزيد بن الدثنة الأنصاري، من صحابة رسول الله ﷺ الذين أُرسلا ضمن نفر قليل لتعليم القرآن لقبيلة استنصرت بالنبي ﷺ زاعمة رغبتها في الإسلام.

قصة الهداية والإسلام

لم يكن إسلامهما محل خلاف، بل كانا من الصحابة الثابتين الذين اختِيروا لمهمة الدعوة والتعليم لثقة النبي ﷺ الكاملة بهما.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

غدرت بهم القبيلة التي استنصرت بهم في حادثة الرجيع، فقُتل أكثر الوفد، وأُسر خبيب وزيد، وبيعا لقريش انتقامًا لقتلى بدر. سجن خبيب بمكة، واستعار من ابنة سيده موسى ليستحدّ بها قبل قتله، فأعارته إياه واثقة به رغم أنه أسيرها، ثم رأته يأكل عنقودًا من عنب في يده وهو في وثاقه، في شهر لا عنب فيه بمكة، فعلمت أنه رزق من عند الله. وقبل قتله طلب أن يصلي ركعتين، ففعل، وقال: لولا أن تظنّوا أن ما بي جزع لطوّلتهما، فكان بذلك أول من سنّ الركعتين لمن يُقتل صبرًا. ثم أنشد قصيدته الخالدة: ولستُ أبالي حين أُقتل مسلمًا... على أي جنبٍ كان لله مصرعي. وسأله أبو سفيان: أتحب أن محمدًا مكانك الآن ونحن نضرب عنقه وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا. وسُئل زيد بن الدثنة السؤال نفسه فأجاب بمثل جوابه، فقُتلا معًا على تلك الكلمة الخالدة.

الوفاة

استُشهد خُبيب بن عدي وزيد بن الدثنة في مكة في حادثة الرجيع سنة أربع للهجرة (625م)، بعد أن ضرَبا أروع مثال في التاريخ الإسلامي على معنى الفداء والحب الصادق للنبي ﷺ حتى من أعدائهما أنفسهم.

الفصل الثاني والعشرون

ثابت بن قيس

خطيب الأنصار الذي خشي أن يكون من أهل النار

النسب والنشأة

هو ثابت بن قيس بن شمّاس الخزرجي الأنصاري، عُرف بفصاحته وقوة صوته حتى لُقّب بـ"خطيب الأنصار"، إذ كان لسانهم المعبّر أمام الوفود والمناسبات الكبرى.

قصة الهداية والإسلام

أسلم ثابت مع من أسلم من الأنصار، وكرّس فصاحته وصوته الجهوري لخدمة الدين الجديد، لكن تلك الصفة نفسها التي ميّزته ستجلب له لاحقًا أشد لحظات قلقه الروحي.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

لما نزل قول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ" محذّرًا من أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ قد يُحبط الأعمال، فزع ثابت بن قيس فزعًا شديدًا، لأنه كان معروفًا بجهارة صوته الطبيعية، فخشي أن يكون قد ارتكب ذلك الإثم دون أن يشعر، فلزم بيته حزينًا لا يخرج، حتى افتقده النبي ﷺ، فأرسل إليه سعد بن معاذ يسأل عن حاله، فوجده جالسًا مطأطئ الرأس يقول: أنا رجل جهير الصوت، أخشى أن يكون قد حبط عملي، وأني من أهل النار. فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال مطمئنًا: "بل هو من أهل الجنة"، فزال عنه ما كان يخشاه.

وبعد سنوات، في معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذّاب، حين بدأت صفوف المسلمين تتزعزع قليلًا تحت ضغط العدو، اغتسل ثابت بن قيس وتحنّط ولبس كفنه استعدادًا للموت وكأنه يعلم يقينًا أنها ساعته الأخيرة، ثم نادى في المسلمين: "بئس ما عوّدتم أقرانكم!" مذكّرًا إياهم بأن التراجع عادة سيئة لا تليق بهم، فثبّت الصفوف بصوته الجهوري نفسه الذي خشي يومًا أن يكون سبب هلاكه، ثم قاتل حتى استُشهد، بعد أن أوصى من حوله بموضع درعه التي خبّأها قبل القتال، فوُجدت لاحقًا تمامًا كما وصفها.

الوفاة

استُشهد ثابت بن قيس في معركة اليمامة سنة اثنتي عشرة للهجرة (633م)، بعد أن ثبّت صفوف المسلمين بخطبته الأخيرة قبل أن يلقى ربه، فكانت خاتمة حياته تصديقًا عمليًا لبشارة النبي ﷺ له بالجنة.

الفصل الثالث والعشرون

قتادة بن النعمان

صاحب العين التي ردّها النبي ﷺ بيده

النسب والنشأة

هو قتادة بن النعمان الأنصاري الظفري، أخو أبي سعيد الخدري لأمه، من فرسان الأنصار الذين شهدوا بدرًا وما بعدها.

قصة الهداية والإسلام

أسلم قتادة مع من أسلم من الأنصار، وشهد بدرًا مع النبي ﷺ وهو لا يزال في مقتبل شبابه.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

أُصيبت عينه يوم بدر (وقيل يوم أُحُد) إصابة بالغة حتى سقطت حدقتها على وجنته، فأتى بها النبي ﷺ فردّها بيده الشريفة إلى مكانها، فالتأمت وعادت كأحسن ما كانت، بل صارت بعد ذلك، بحسب ما رواه أبناؤه، أصحّ عينيه وأحدّهما بصرًا.

الوفاة

توفي قتادة بن النعمان في المدينة المنورة في عهد عمر بن الخطاب، في حدود سنة ثلاث وعشرين للهجرة (643م)، حاملًا في وجهه إلى آخر عمره أثر تلك المعجزة التي شهدها بنفسه.

الفصل الرابع والعشرون

معاذ ومعوّذ ابنا عفراء

الغلامان اللذان أرديا أبا جهل

النسب والنشأة

هما معاذ ومعوّذ، ابنا الحارث بن رفاعة، المعروفة أمهما بعفراء فنُسبا إليها، غلامان أنصاريان صغيران لم يبلغا بعد من العمر ما يبلغه عادة من يخوض المعارك الكبرى.

قصة الهداية والإسلام

نشآ في بيت أنصاري مسلم، وكانا يسمعان ما يبلغهما من أذى أبي جهل بن هشام للنبي ﷺ، فامتلأ قلباهما غيظًا عليه رغم صغر سنهما.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

يوم بدر، سأل كل واحد منهما النبي ﷺ، في غير علم من الآخر، أن يدله على أبي جهل، فلما دلّه عليه انطلق كل منهما يبحث عنه بمفرده وسط المعركة، حتى وجداه، فانقضّا عليه معًا فضرباه حتى أثخناه وسقط. مرّ بهما عبد الله بن مسعود فوجد أبا جهل لا يزال به رمق، فأجهز عليه واحتزّ رأسه، وحملها إلى النبي ﷺ. فلما عرض على النبي ﷺ سيفي الغلامين ليعرف أيهما صاحب الضربة القاضية، لم يستطع الجزم، فنسب قتله إليهما معًا، وقال: "الله أكبر، هذا فرعون هذه الأمة"، فرحًا بمصرع أعتى أعداء الدعوة على يدي غلامين صغيرين لم يكن أحد يظن أنهما سيغيّران مسار المعركة بهذا الشكل.

الوفاة

استُشهد معوّذ بن عفراء في معركة بدر نفسها سنة اثنتين للهجرة (624م)، أما أخوه معاذ فعاش بعدها، حاملين معًا شرف قتل أشد أعداء الإسلام في أول مواجهة كبرى بين الحق والباطل.

الفصل الخامس والعشرون

عُمير بن الحُمام

الذي رمى تمراته ركضًا إلى الجنة

النسب والنشأة

هو عُمير بن الحُمام الأنصاري، من الأنصار الذين شهدوا بدرًا، ولا تفصّل كتب السيرة كثيرًا من تفاصيل نسبه ونشأته، إذ اختُصرت سيرته كلها في مشهد واحد خالد لا يُنسى.

قصة الهداية والإسلام

أسلم عمير مع من أسلم من الأنصار قبل الهجرة أو بُعيدها، ولم يكن معروفًا بشيء خاص قبل يوم بدر، حتى صنع في تلك المعركة موقفًا صار مضرب المثل في العجلة إلى الآخرة.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

في صبيحة بدر، وبينما كان النبي ﷺ يحرّض أصحابه على القتال، قال لهم: "قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض." وكان عمير بن الحُمام يأكل تمرات في يده تلك اللحظة، فقال متعجبًا: بخٍ بخٍ! فقال له النبي ﷺ: "ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ؟" قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: "فإنك من أهلها." فألقى عمير التمرات التي في يده على الأرض وقال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة! ثم مضى يقاتل حتى استُشهد، مؤثرًا لحظة اللقاء بربه على لحظات قليلة معدودة كان يمكن أن يقضيها في أكل ما تبقى في يده من تمر.

الوفاة

استُشهد عمير بن الحُمام في غزوة بدر سنة اثنتين للهجرة (624م)، فكان بذلك من أوائل شهداء الإسلام في أول معركة كبرى خاضها المسلمون، وخلّد موقفه في التاريخ رمزًا لشوق النفس المؤمنة إلى لقاء ربها.

الباب الثالث: مُسلمة الفتح ومتأخرو الإسلام والوافدون

من أسلم متأخرًا قرب فتح مكة أو بعده، أو قدم في وفود القبائل، أو اعتنق الإسلام من أهل الكتاب في المدينة.

الفصل الأول

خالد بن الوليد

من سيف على الرسول إلى سيف الله المسلول

النسب والنشأة

هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، القرشي المخزومي. وبنو مخزوم بطنٌ من أعرق بطون قريش وأكثرها ثراءً ونفوذًا، وكان أبوه الوليد بن المغيرة من أشراف مكة الكبار، حتى لُقّب بـ"ريحانة قريش"، وهو الذي نزل فيه قول الله تعالى واصفًا عناده: "ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا". أما أمه فهي لُبابة الصغرى بنت الحارث الهلالية، وهي أخت مَيمونة بنت الحارث التي أصبحت لاحقًا زوجًا للنبي ﷺ، وأخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب عمّ النبي؛ فخالد، من جهة أمه، كان ابن خالة لأبناء العباس، وقريبًا نسبيًّا من بيت النبوة قبل أن يجمعه به الإيمان.

نشأ خالد في بيت ثراء وجاه، وتدرّب منذ صباه على الفروسية والرماية والمصارعة، حتى صار من أشد فتيان قريش بأسًا، وكانت له في الحرب موهبة فطرية: عينٌ ترى الثغرة قبل أن يراها غيره، وذهنٌ يقرأ المعركة كما يقرأ التاجر ميزان تجارته.

قصة الهداية والإسلام

قبل أن يخطو خالد نفسه خطوته نحو الإيمان، كان قد رأى الشرخ الأول يمرّ من داخل بيته: أخوه الوليد بن الوليد، الذي أُسر يوم بدر وهو مشرك، أسلم في مكة بعد فدائه، فحبسه أهله في بيت مظلم خشية أن يلحق بمحمد ﷺ في المدينة، حتى تمكن من الفرار ليلًا واهتدى إلى الطريق بصعوبة بالغة، وهو يدعو الله: "اللهم أنج الوليد." كان ذلك الشرخ الأول في يقين خالد الجاهلي: أن أقرب الناس إليه بالدم قد اختار طريقًا غير طريقه، وأن العائلة التي بُني مجدها على وحدة الصف القرشي بدأت تتصدّع من الداخل قبل أن يتصدّع سيف خالد نفسه على أعداء أبيه القدامى.

قاد خالد ميمنة خيل قريش يوم أُحُد، وهو الذي التفّ من خلف الرماة حين تركوا الجبل طمعًا في الغنيمة، فقلب هزيمة محققة إلى نصر لقريش، وترك جرحًا غائرًا في صفوف المسلمين. ظل على عداوته سنوات، حتى صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، حين بدأ يشعر أن الطريق الذي يسير فيه قومه لم يعد يحتمل عبقريته العسكرية ولا يقينه المتنامي.

يُروى أنه رأى في منامه أنه في مكان ضيق فخرج منه إلى أرض واسعة خضراء، ففسّرها بأنها إشارة إلى فراقه دين قومه إلى الإسلام. في السنة الثامنة للهجرة، وقبيل فتح مكة بأشهر قليلة، خرج مهاجرًا إلى المدينة، فالتقى في الطريق بعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، وكلاهما كان يحمل التردد نفسه، فتعاهدوا على الإسلام ووصلوا معًا إلى النبي ﷺ. فلما مثل خالد بين يديه، بايعه على الإسلام، فقال له النبي ﷺ الكلمة التي أعادت تأسيس ذاته بالكامل: "أسلم يا خالد، فإن الإسلام يجُبّ ما قبله."

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

بعد إسلامه بأشهر، أُرسل في السنة الثامنة على رأس سرية لهدم صنم العُزّى، أعظم أصنام قريش بعد اللات ومناة. هدم البناء أول مرة وعاد يخبر النبي ﷺ، فسأله: "هل رأيت شيئًا؟" فقال: لا، فقال له: "فارجع فاهدمها"، فعاد فوجد عندها امرأة سوداء عارية تصرخ وتنشر شعرها، فضربها بسيفه حتى قتلها، ثم عاد يقول: "تلك العُزّى، ولن تُعبد بعد اليوم"، فكان في تلك الرواية إعلانٌ رمزي بأن آخر معاقل الوثنية في نفس خالد نفسه، لا في الصخرة وحدها، قد سقطت أخيرًا. ثم شهد فتح مكة.

لكن الطريق من "سيف الله المسلول" إلى "المخلص التام" لم يكن خاليًا من العثرات، وأبرزها ما وقع في حروب الردة حين أُرسل إلى بني يربوع حيث كان مالك بن نويرة، أحد أشراف تميم، متردّدًا في موقفه من زكاة الإسلام. قُتل مالك في ظروف مختبَة بين الروايات: أكان مرتدًّا يستحق القتال، أم مسلمًا وقع ضحية سوء تفاهم في محادثة بينه وبين جند خالد؟ والأدهى أن خالدًا تزوج من أرملته، أم تميم، في الليلة التالية مباشرة لمقتله، وهو ما بلغ عمر بن الخطاب فغضب غضبًا شديدًا، وطالب أبا بكر الصديق بعزل خالد بل بالقصاص منه. لكن أبا بكر، بعد التحقيق، رأى أن خالدًا تأوّل فأخطأ، ولم يتعمّد قتل مسلم، فقال قولته المشهورة: "لا أُشيم سيفًا سلّه الله على المشركين"، ورفض عزله. تكشف هذه الحادثة، أكثر من أي انتصار عسكري، الوجه الأكثر إظلامًا في شخصية خالد: رجل السرعة نفسها التي صنعت منه عبقريًّا في ساحة الوغى، جعلته أحيانًا لا يفرّق بين لحظة الحسم ولحظة التروّي، وهي ثنائية ستلازمه إلى آخر أيامه.

وفي السنة نفسها تقريبًا، وقعت غزوة مؤتة في أطراف الشام، حين خرج جيش المسلمين الصغير لملاقاة جموع الروم الغفيرة. استُشهد القادة الثلاثة الذين عيّنهم النبي ﷺ واحدًا بعد آخر: زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة، فأخذ خالد الراية بنفسه، ونظّم في الليل انسحابًا محكمًا غيّر فيه تشكيلات الجيش وأثار غبارًا كثيفًا أوهم الروم بوصول مدد ضخم، حتى تراجعوا هم أنفسهم من فرط الحذر، فنجا الجيش المسلم من إبادة محققة.

حين عاد الناجون إلى المدينة، قابلهم بعضهم بالتثريب قائلين: "يا فُرّار، أفررتم في سبيل الله؟" فردّ عليهم النبي ﷺ بكلمته المشهورة: "ليسوا بالفُرّار، ولكنهم الكرّارون إن شاء الله." ووصف خالدًا بقوله: "أخذ الراية خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله"، ومنها جاء لقبه الخالد "سيف الله المسلول".

ومن مواقفه الخالدة الأخرى قيادته لحروب الردة في عهد أبي بكر الصديق، وعلى رأسها معركة اليمامة الفاصلة ضد مسيلمة الكذّاب، تلك المعركة التي عرفت بـ"حديقة الموت" لكثرة من سقط فيها من الفريقين، وعلى رأسهم عدد كبير من حفظة القرآن، حتى دفع ذلك أبا بكر لاحقًا إلى الأمر بجمع القرآن خشية أن يذهب بذهاب حامليه. وفي مفارقة تستحق التأمل: إن الرمح نفسه الذي أودى بحياة حمزة بن عبد المطلب يوم أُحُد، بيد وحشي بن حرب، هو الرمح الذي أودى بحياة مسيلمة الكذّاب في تلك المعركة على يد الرامي نفسه، الذي قال معلّقًا: "قتلتُ به خير الناس في الجاهلية، وقتلتُ به شرّ الناس في الإسلام." ثم توالت فتوحاته الكبرى في العراق والشام، وموقعة اليرموك الحاسمة التي حسمت مصير الشام لصالح المسلمين. ولمّا عزله عمر بن الخطاب عن القيادة العامة، رغم انتصاراته، لم يعترض ولم يستعظم الأمر، بل قال قولته المشهورة التي تختصر إخلاصه: "والله ما قاتلتُ لعمر، ولكن قاتلت لله."

غزواته ومشاهده

شهد خالد قبل إسلامه أُحُد والخندق في صف المشركين، ثم بعد إسلامه شهد مؤتة قائدًا، وفتح مكة، وحنينًا، والطائف، وتبوك، ثم قاد حروب الردة كاملة وعلى رأسها اليمامة، ثم فتوحات العراق، ثم معارك الشام الكبرى وعلى رأسها اليرموك، فيما يُعدّ من أطول وأحفل سجل عسكري لصحابي واحد على الإطلاق.

كرامات ومواقف خارقة

رُويت عن خالد حادثة مشهورة، وإن ضعّف كثير من المحدثين سندها: أنه شرب سُمًّا قاتلًا أمام وفد من الفرس تحدّوه به قائلًا: بسم الله، فلم يُصبه أذى، فتعجّب الحاضرون من ثباته وسلامته. تُروى هذه القصة في كتب السيرة كثيرًا لكنها ليست على الدرجة نفسها من الصحة التي عليها بقية مواقفه الموثقة.

الوفاة

توفي خالد بن الوليد في حمص بالشام سنة إحدى وعشرين للهجرة (642م)، ميتة طبيعية على فراشه، لا بجرح ولا طعنة. يُروى أنه بكى عند احتضاره وقال ما معناه إنه ما من موضع شبر في جسده إلا وفيه أثر ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم، وها هو يموت على فراشه كما يموت العجزة الذين لم يشهدوا قتالًا قط. دُفن في حمص، وبُني على قبره لاحقًا المسجد الذي لا يزال يحمل اسمه إلى اليوم.

الفصل الثاني

عمرو بن العاص

الداهية بين الدنيا والفتح

النسب والنشأة

هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي، من بني سهم، وكان منذ صباه معروفًا بذكاء حاد ولسان بليغ وحيلة نادرة، حتى عُدّ من دهاة العرب الأربعة الذين ضُرب بهم المثل في الفطنة السياسية.

قصة الهداية والإسلام

كان عمرو من ألدّ أعداء الإسلام في مكة، حتى إنه كان أحد وفدَي قريش اللذين أُرسلا إلى النجاشي في الحبشة لإقناعه بتسليم المهاجرين المسلمين، ففشلت مهمته أمام فصاحة جعفر بن أبي طالب وحكمة النجاشي، وعاد خائبًا.

لكن هزيمة قريش المتوالية، وانكشاف زيف آلهتها أمامه شيئًا فشيئًا، دفعاه إلى إعادة النظر. في السنة الثامنة للهجرة، وقبيل فتح مكة بأشهر، خرج مهاجرًا إلى المدينة، فالتقى في الطريق بخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، وكلاهما يحمل التردد نفسه، فتعاهدوا على الإسلام معًا ومضوا يبايعون النبي ﷺ، فكان بذلك أحد ثلاثة عقول عسكرية وسياسية كبرى انضمت إلى صف الإسلام في وقت واحد تقريبًا، مغيّرة ميزان القوى تمامًا لصالح المسلمين قبيل الفتح الأعظم.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

رغم حداثة عهده بالإسلام، ثقة النبي ﷺ به سريعًا، فأرسله قائدًا على سرية ذات السلاسل، وفي تلك السرية سأل عمرو النبي ﷺ سؤالًا شخصيًا جريئًا: "أي الناس أحبّ إليك؟" فقال: "عائشة"، قال: من الرجال؟ قال: "أبوها"، فسكت عمرو عندها، خشية أن يُقال له إنه ليس في المرتبة الأولى، مكتفيًا بأن يكون قريبًا من دائرة الحب النبوي دون أن يطلب المرتبة الأولى فيها.

وبعد وفاة النبي ﷺ، برز نجم عمرو أكثر في عهد عمر بن الخطاب حين قاد جيوش الفتح إلى مصر، ففتحها فتحًا كاملًا في زمن قياشي، وأسّس مدينة الفسطاط أول عاصمة إسلامية في أرض الكنانة، وبنى فيها أول مسجد يُقام في أفريقيا كلها، وظل اسمه مقترنًا بذلك الفتح العظيم إلى اليوم.

ومن أجمل ما نُقل عنه أنه، وهو على فراش الموت في شيخوخته بمصر، بكى بكاءً شديدًا، فلما سأله ابنه عن سبب بكائه وهو الفاتح العظيم صاحب الأمجاد، قال ما معناه: كنت في الجاهلية شديد العداوة للنبي ﷺ فلو متّ حينها لكنت من أهل النار، ثم أسلمت فما كان أحد أحبّ إليّ منه، ثم توليت أمورًا لا أدري كيف أُحاسب عليها، وختم بقوله وهو يستسلم لرحمة ربه: "اللهم لا قويّ فأنتصر، ولا بريء فأعتذر، ولكن لا إله إلا الله." فمات وهو على تلك الحال من الرجاء الممزوج بالخشية.

مدرسته الفقهية وآراؤه

يُنسب إلى عمرو بن العاص اجتهاد فقهي مبكر ومهم: ففي سرية ذات السلاسل، أصابته جنابة في ليلة شديدة البرد، فتيمم وصلى بأصحابه دون اغتسال خشية الهلاك من شدة البرد، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لم ينكر عليه، بل ابتسم ولم يقل شيئًا، فصار هذا الموقف أصلًا فقهيًّا يُستدل به على جواز التيمم بدل الغسل عند خوف الضرر بالماء البارد.

الوفاة

توفي عمرو بن العاص في مصر سنة ثلاث وأربعين للهجرة تقريبًا (664م)، واليًا عليها في عهد معاوية بن أبي سفيان، ودُفن فيها، وله فيها من الأثر ما لا يزال قائمًا في اسم الفسطاط ومسجده العتيق.

الفصل الثالث

أبو هريرة

أكثر الصحابة رواية للحديث

النسب والنشأة

هو عبد الرحمن بن صخر الدوشي، من قبيلة دَوس باليمن، واختُلف في اسمه الحقيقي قبل الإسلام اختلافًا كبيرًا، واشتُهر بكنيته "أبو هريرة" لتعلّقه بهرّة صغيرة كان يحملها معه أينما ذهب.

قصة الهداية والإسلام

أسلم أبو هريرة متأخرًا نسبيًّا، في حدود السنة السابعة للهجرة، على يد الطفيل بن عمرو الدوشي، ووفد إلى المدينة في زمن خيبر، فلم يُلازم النبي ﷺ إلا نحو ثلاث أو أربع سنوات فحسب قبل وفاته.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

رغم قصر مدة صحبته، صار أبو هريرة أكثر الصحابة رواية للحديث النبوي على الإطلاق، وسرّ ذلك أنه انقطع لصحبة أهل الصُّفّة الفقراء الملازمين للمسجد، لا يشغله عن مجالس النبي ﷺ تجارة ولا زرع ولا أهل، بخلاف كثير من كبار الصحابة الذين شغلتهم أعمالهم الدنيوية أحيانًا عن حضور كل مجلس.

شكا أبو هريرة إلى النبي ﷺ أنه ينسى ما يسمعه منه، فقال له النبي ﷺ: "ابسط رداءك"، فبسطه، فغرف بيديه كأنه يغرف شيئًا ثم قال: "ضمّه"، فضمّه إلى صدره، فقال أبو هريرة: ما نسيت حديثًا سمعته منه بعد تلك الليلة.

روايته للحديث وتلاميذه

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة، وهو أكثر عدد روته صحابي واحد في تاريخ الإسلام كله، وتخرّج على يديه عدد كبير من كبار التابعين، منهم سعيد بن المسيّب وأبو سلمة بن عبد الرحمن، الذين حملوا عنه هذا الإرث الحديثي الهائل ونقلوه للأجيال التالية.

الوفاة

توفي أبو هريرة في المدينة المنورة في حدود سنة سبع وخمسين إلى تسع وخمسين للهجرة، في عهد معاوية بن أبي سفيان، تاركًا للأمة أضخم إرث حديثي حمله صحابي واحد في التاريخ الإسلامي كله.

الفصل الرابع

أبو موسى الأشعري

صاحب مزمار آل داود

النسب والنشأة

هو عبد الله بن قيس الأشعري، من اليمن، هاجر إلى الحبشة ثم قدم المدينة، واشتهر بصوته الجميل الآسر في تلاوة القرآن حتى فاق به كل من سمعه.

قصة الهداية والإسلام

أسلم أبو موسى مع قومه الأشعريين، وهاجر إلى الحبشة ضمن من هاجر إليها، ثم قدم المدينة بعد فتح خيبر مع من قدم من الأشعريين وأهل السفينتين من الحبشة، فأحسن النبي ﷺ استقبالهم.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

مرّ النبي ﷺ ذات ليلة ببيت أبي موسى وهو يقرأ القرآن، فوقف يستمع إليه طويلًا دون أن يشعر به أبو موسى، فلما أخبره في صباح اليوم التالي بأنه وقف يستمع إلى قراءته، قال له النبي ﷺ: "لقد أُوتيت مزمارًا من مزامير آل داود"، تشبيهًا لصوته العذب بصوت النبي داود عليه السلام الذي عُرف في التراث بجمال صوته الفريد. فقال أبو موسى متأدبًا: لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحبّرته لك تحبيرًا، أي لزدته تجويدًا وتحسينًا.

تولى أبو موسى لاحقًا إمارة البصرة والكوفة في عهدي عمر وعثمان، فنشر فيهما علمًا وفقهًا كبيرين إلى جانب صوته الذي لا يُضاهى في تلاوة كتاب الله.

روايته للحديث وتلاميذه

روى أبو موسى الأشعري عددًا معتبرًا من الأحاديث، وتخرّج على يديه في البصرة والكوفة تلاميذ كثيرون، منهم ابنه أبو بردة الذي روى عنه علمًا غزيرًا في الفقه والقضاء.

الوفاة

توفي أبو موسى الأشعري في الكوفة، في حدود سنة اثنتين وأربعين إلى ثلاث وخمسين للهجرة بحسب اختلاف الروايات، تاركًا صيتًا لا يزال يُذكر كلما ذُكر جمال الصوت في تلاوة القرآن.

الفصل الخامس

النعمان بن مقرن

قائد نهاوند الذي رأى النصر ولم يشهد فرحته

النسب والنشأة

هو النعمان بن مقرن المزني، قدم على النبي ﷺ بقومه بني مزينة وفدًا كاملًا يزيد على أربعمائة رجل، فأسلموا جميعًا في وقت واحد.

قصة الهداية والإسلام

أسلم النعمان مع قومه في وفد واحد، وشهد مع النبي ﷺ غزواته المتأخرة، ثم برز نجمه قائدًا عسكريًّا محنّكًا في عهد عمر بن الخطاب.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

ولّاه عمر بن الخطاب قيادة الجيش الإسلامي في معركة نهاوند الفاصلة ضد فارس سنة إحدى وعشرين للهجرة، وهي المعركة التي عُرفت بـ"فتح الفتوح" لأنها أنهت عمليًّا مقاومة الإمبراطورية الفارسية المنظمة. دعا النعمان قبل المعركة دعاءً مؤثرًا يطلب فيه النصر أو الشهادة، ووضع لجنوده إشارات محددة بالتكبير لبدء الهجوم على مراحل، ثم قاد الهجوم بنفسه في الصفوف الأولى، فاستُشهد في اللحظة نفسها التي تحقق فيها النصر الكاسح للمسلمين، فرأى بشائر الفتح ولم يعش ليرى تمام فرحته.

الوفاة

استُشهد النعمان بن مقرن في معركة نهاوند سنة إحدى وعشرين للهجرة (642م)، قائدًا منتصرًا سقط في لحظة انتصاره نفسها.

الفصل السادس

عبد الله بن سلام

الحبر الذي شهد له القرآن

النسب والنشأة

هو الحُصين بن سلام، حَبر من أحبار يهود المدينة، عالمٌ بالتوراة معروف بالفضل والعلم بين قومه، فلما أسلم سمّاه النبي ﷺ عبد الله بن سلام.

قصة الهداية والإسلام

لما قدم النبي ﷺ المدينة مهاجرًا، أسرع عبد الله بن سلام إليه دون أن ينتظر، وقال: إنه لما رأى وجه النبي ﷺ علم أنه ليس بوجه كذّاب. وكان أول ما سمعه منه ﷺ قوله: "أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام." فسأله عبد الله عن أشياء لا يعلمها إلا نبي أو من درس التوراة دراسة عميقة، فأجابه النبي ﷺ إجابات مطابقة تمامًا لما يعرفه من كتابه، فأيقن عندها أنه النبي المنتظر، وأسلم من فوره.

طلب عبد الله من النبي ﷺ أن يُخفي إسلامه أولًا، ويسأل اليهود عن منزلته فيهم قبل أن يعلموا بإسلامه، متوقعًا أنهم سيقولبون عليه إن علموا. فجمع النبي ﷺ أحبار اليهود وسألهم عن عبد الله بن سلام، فأثنوا عليه ثناءً عظيمًا وقالوا: سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا. فخرج عليهم عبد الله من مخبئه معلنًا إسلامه، فانقلبوا من فورهم يذمّونه بأسوأ ما قالوا فيه من مدح قبل لحظات، فتحقق ما توقعه تمامًا.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

يرى كثير من المفسرين أن قوله تعالى في سورة الأحقاف: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ" نزل في شأن عبد الله بن سلام تحديدًا، فكان بذلك "الشاهد من بني إسرائيل" الذي خلّده القرآن بلا تسمية صريحة، كما خلّد زيد بن حارثة من قبله بالتسمية الصريحة، وهما وجهان مختلفان لتكريم قرآني لم يُتَح لغيرهما من الصحابة.

الوفاة

توفي عبد الله بن سلام في المدينة المنورة في عهد معاوية بن أبي سفيان، في حدود سنة ثلاث وأربعين للهجرة (663م)، بعد أن قضى حياته الإسلامية كلها شاهدًا حيًّا على أن الحق يُعرف بنوره لا بموروث الأجداد.

الفصل السابع

كعب بن زهير

صاحب البردة النبوية

النسب والنشأة

هو كعب بن زهير بن أبي سُلمى، ابن أحد كبار شعراء الجاهلية أصحاب المعلقات المشهورة، ورث عن أبيه موهبة الشعر، لكنه ورث معها في أول الأمر عداوته للإسلام لا محبته.

قصة الهداية والإسلام

هجا كعب النبي ﷺ والمسلمين بشعره، فأهدر النبي ﷺ دمه عقوبة لخطورة لسانه في تلك الحرب الإعلامية المبكرة، بينما أسلم أخوه بُجير بن زهير وكتب إليه ينصحه بالإسلام قبل فوات الأوان. خاف كعب على نفسه، فقصد المدينة سرًّا، وأخذ بيد النبي ﷺ في المسجد معلنًا توبته دون أن يُعرّفه بنفسه أول الأمر، ثم أنشده قصيدته المشهورة "بانت سُعاد" اعتذارًا ومديحًا.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

في تلك القصيدة، قال كعب أبياتًا وصف فيها النبي ﷺ وصفًا خالدًا: "إن الرسول لسيفٌ يُستضاء به، مهنّدٌ من سيوف الله مسلولُ"، فتأثر النبي ﷺ بالقصيدة وبتوبة صاحبها تأثرًا بالغًا، حتى خلع بردته الشريفة عن كتفيه وألقاها على كعب إكرامًا له وعفوًا عما سلف، فعُرفت القصيدة بعدها بـ"قصيدة البردة"، وصارت تلك البردة نفسها أثرًا تناقلته الخلافات من بعده حتى صارت رمزًا من رموز الشرعية السياسية والدينية لقرون تالية.

الوفاة

اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة كعب بن زهير اختلافًا كبيرًا، وإن كان أغلبهم يميل إلى أنه توفي في عهد معاوية بن أبي سفيان، تاركًا قصيدته "بانت سعاد" أشهر قصيدة مديح نبوي في تاريخ الأدب العربي كله.

الفصل الثامن

حكيم بن حزام

الذي لم يسجد لصنم قط ولم يسأل أحدًا شيئًا

النسب والنشأة

هو حكيم بن حزام بن خويلد، ابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ، وُلد داخل الكعبة نفسها في مولد نادر لم يُروَ لغيره، ونشأ تاجرًا ثريًّا معروفًا بالكرم والصدق حتى قبل الإسلام.

قصة الهداية والإسلام

أسلم حكيم بن حزام عند فتح مكة متأخرًا، لكنه كان يقول عن نفسه إنه ما سجد لصنم قط في جاهليته، وكأن فطرته أبت عليه ذلك قبل أن يهديه الإسلام رسميًّا.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

سأل حكيم النبي ﷺ مرات فأعطاه، حتى قال له النبي ﷺ يومًا: "يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلـوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى." فقال حكيم: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا. فوفى بذلك حتى آخر حياته، فكان في عهد أبي بكر وعمر يُعرض عليه عطاؤه من بيت المال فيرفضه، وفاءً بوعده الذي قطعه على نفسه.

الوفاة

توفي حكيم بن حزام في المدينة المنورة في عهد معاوية بن أبي سفيان، وقد ناهز المئة والعشرين من عمره بحسب بعض الروايات، فعاش شطرًا طويلًا من الجاهلية وأدرك صدر الإسلام كاملًا حـتى أواخـر القـرن الأول الهجري تقريبًا.

الفصل التاسع

صفوان بن أمية

الذي فتح الإسلام قلبه بالعطاء لا بالسيف

النسب والنشأة

هو صفوان بن أمية بن خلف، ابن أمية بن خلف الذي عذّب بلالًا بنفسه، وكان صفوان من أشد أعداء الإسلام في مكة حتى فتحها المسلمون.

قصة الهداية والإسلام

عند فتح مكة، فرّ صفوان خشية القتل، فلحق به عُمير بن وهب بأمان من النبي ﷺ وأقنعه بالعودة. لم يكن صفوان قد أسلم بعد حين استعار منه النبي ﷺ دروعًا وسلاحًا لغزوة حنين، فسأله صفوان: أغصبًا يا محمد؟ فقال النبي ﷺ: بل عارية مضمونة. فلما رأى صفوان كرم النبي ﷺ في قسمة غنائم حنين، وأعطاه منها عطاءً سخيًّا رغم أنه لم يكن قد أسلم بعد، قال صفوان مندهشًا: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحبّ الناس إليّ. فأسلم صفوان عن قناعة تامة بعد أن غيّر كرم النبي ﷺ قلبه كليًّا.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

صار صفوان بعد إسلامه من الذين تألّف النبي ﷺ قلوبهم بالعطاء، وشهد حنينًا والطائف في صف المسلمين بعد أن كان بالأمس يخشى القتل على يدهم.

الوفاة

توفي صفوان بن أمية في مكة في عهد عثمان بن عفان، في حدود سنة اثنتين وأربعين للهجرة (662م)، بعد أن تحوّل من أشد أعداء الإسلام إلى أحد الأمثلة الخالدة على أثر الكرم في تغيير القلوب.

الفصل العاشر

أبو سفيان بن الحارث

ابن عم النبي ﷺ الذي هجاه ثم صار أحبّ الناس إليه

النسب والنشأة

هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم النبي ﷺ ورضيعه، نشأ معه في صباه قريبًا منه، لكنه صار في شبابه من ألدّ خصومه، يهجوه بشعره اللاذع سنين طويلة.

قصة الهداية والإسلام

لما فتح النبي ﷺ مكة، أدرك أبو سفيان بن الحارث أن الباطل الذي ناصره طويلًا قد انكشف زيفه، فقصد النبي ﷺ نادمًا منكسرًا، ينشد أبياتًا يعتذر فيها عمّا سلف من هجائه. أعرض عنه النبي ﷺ مرتين أو ثلاثًا عقوبة على طول عناده، حتى شفع له بعض أهله، فقبله النبي ﷺ أخيرًا وعانقه، وقال له كلمة تلخّص عمق الصفح: أنت أحبّ إليّ من نفسي ومالي وولدي.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

بعد إسلامه، شهد أبو سفيان بن الحارث حنينًا والطائف قتالًا صادقًا إلى جانب ابن عمه الذي طالما هجاه، فيما يُعدّ من أعمق قصص التحول من العداوة السافرة إلى المحبة الخالصة في السيرة النبوية.

الوفاة

توفي أبو سفيان بن الحارث في المدينة المنورة في عهد عمر بن الخطاب، في حدود سنة عشرين للهجرة (641م).

الفصل الحادي عشر

عروة بن مسعود الثقفي

صاحب يس ثانية

النسب والنشأة

هو عروة بن مسعود الثقفي، من كبار سادة ثقيف في الطائف، وكان من أشد المعارضين للإسلام في بداية الأمر، حتى إنه كان أحد مفاوضي قريش في صلح الحديبية قبل أن يُسلم هو نفسه لاحقًا.

قصة الهداية والإسلام

في الحديبية، أرسلته قريش للتفاوض مع النبي ﷺ، فعاد إلى قومه مندهشًا مما رآه من تعظيم أصحاب النبي ﷺ له، حتى قال لهم: والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكًا قط يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمدًا. ثم أسلم عروة بعد حصار الطائف، وذهب إلى النبي ﷺ فأعلن إسلامه.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

استأذن عروة النبي ﷺ في العودة إلى قومه بالطائف ليدعوهم إلى الإسلام بنفسه، واثقًا من محبتهم له، وقال: إنهم أشدّ لي حبًّا من أبصارهم. حذّره النبي ﷺ أنهم قد يقتلونه، فقال: يا رسول الله، أنا أحبّ إليهم من أبنائهم. فأذن له، فعاد ونادى فيهم من فوق غرفة في بيته داعيًا إلى الإسلام، فما كان منهم إلا أن رشقوه بالسهام من كل جانب حتى قتلوه، فطعنه أحدهم بسهم أرداه قتيلًا. فلما بلغ الخبر النبي ﷺ، قال معلّقًا: "إن مَثَله في قومه كَمَثَل صاحب يس في قومه، دعا قومه إلى الله فقتلوه"، مقارنًا إياه بحبيب النجار الذي ورد ذكره في سورة يس داعيًا قومه ثم قُتل على يدهم، وهي مقارنة قرآنية نبوية لم تُقل في حق أحد من الصحابة غيره.

الوفاة

استُشهد عروة بن مسعود الثقفي في الطائف على يد قومه بُعيد إسلامه مباشرة، في حدود السنة التاسعة للهجرة (630م)، فكان بذلك من أسرع الصحابة استشهادًا بعد إسلامه، وأشبههم بنبي قومه الذي قتله قومه في القرآن.

الفصل الثاني عشر

زيد بن سَعنة

الحبر الذي اختبر صبر النبي فوجده كما وصفته كتبه

النسب والنشأة

هو زيد بن سَعنة، حَبر من أحبار يهود المدينة، عالم بكتبهم، عُرف بدقته في اختبار علامات الأنبياء الواردة في التوراة.

قصة الهداية والإسلام

أراد زيد أن يختبر النبي ﷺ في أكثر صفاته دقة عنده: أن حِلمه يزداد كلما ازداد الجهل عليه. فأقرضه مالًا لأجل معلوم، ثم أتاه قبل حلول الأجل بأيام، فأمسك بثوبه ورداء النبي ﷺ بعنف أمام الناس وقال بخشونة: ألا تقضيني يا محمد حقي؟ إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطْل. فهمّ عمر بن الخطاب أن يبطش به غضبًا لرسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ هادئًا: يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك، أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن التقاضي. اذهب به يا عمر فأعطه حقه وزده عشرين صاعًا من تمر مكان ما رعته من قلبه. فذهب معه عمر، فلما أعطاه، سأله زيد: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا. قال: أنا زيد بن سَعنة، الحبر. قال: وما حملك على أن قلت لرسول الله ﷺ ما قلت؟ قال: يا عمر، إنه لم يكن من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حِلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فقد اختبرتهما الآن، فأشهدك يا عمر أني رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا. فأسلم زيد من فوره.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

بعد إسلامه، شهد زيد بن سَعنة مع النبي ﷺ بعض مغازيه، وصار مثالًا يُروى في كتب السيرة على أن أخلاق النبي ﷺ كانت هي الحجة الأقوى في إقناع أهل الكتاب أكثر من أي جدل نظري.

الوفاة

استُشهد زيد بن سَعنة، بحسب بعض الروايات، في غزوة تبوك سنة تسع للهجرة (631م)، بعد أن عاش إسلامه سنوات قليلة فقط منذ تلك اللحظة التي غيّرت يقينه تمامًا.

الفصل الثالث عشر

دحية الكلبي

الذي كان جبريل يأتي على صورته

النسب والنشأة

هو دحية بن خليفة الكلبي، عُرف بجمال استثنائي بين رجال العرب، حتى صار مضرب المثل في حسن الصورة والهيئة.

قصة الهداية والإسلام

أسلم دحية الكلبي وصار من أقرب أصحاب النبي ﷺ إليه، وحمل رسائله إلى ملوك الأرض.

مواقفه الخالدة وأحاديثه مع النبي ﷺ

كان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ أحيانًا في صورة دحية الكلبي لشدة وسامته، حتى إن بعض الصحابة كانوا يرون رجلًا غريبًا حسن الهيئة يجلس إلى النبي ﷺ، فيظنونه دحية، ثم يخبرهم النبي ﷺ أنه كان جبريل عليه السلام. وحمل دحية رسالة النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم يدعوه فيها إلى الإسلام.

الوفاة

توفي دحية بن خليفة الكلبي في عهد معاوية بن أبي سفيان، في حدود سنة خمسين للهجرة تقريبًا (670م)، تاركًا اسمه مقترنًا في الذاكرة الإسلامية بأجمل صورة تجلّى فيها الوحي الملائكي.

المراجع

استند هذا الكتاب في وقائعه وأحاديثه وآياته إلى المصادر الكلاسيكية المعتمدة في السيرة والطبقات والحديث، وأبرزها:

1. ابن هشام، عبد الملك، **السيرة النبوية** (تهذيب سيرة ابن إسحاق).

2. ابن سعد، محمد، **الطبقات الكبرى**.

3. البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري**.

4. مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**.

5. الترمذي، محمد بن عيسى، **سنن الترمذي**.

6. أبو داود السجستاني، **سنن أبي داود**.

7. النسائي، أحمد بن شعيب، **سنن النسائي**.

8. ابن حنبل، أحمد، **مسند الإمام أحمد**.

9. ابن عبد البر، يوسف، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**.

10. ابن الأثير، علي، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**.

11. ابن حجر العسقلاني، أحمد، **الإصابة في تمييز الصحابة**.

12. الطبري، محمد بن جرير، **تاريخ الأمم والملوك**.

13. ابن كثير، إسماعيل، **البداية والنهاية**.

14. الواقدي، محمد بن عمر، **كتاب المغازي**.

15. الذهبي، محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**.

ملاحظة منهجية: هذا كتاب اجتهاد أدبي يستلهم وقائعه من هذه المصادر ويعيد صياغتها بأسلوب سردي محرّر، وليس استشهادًا حرفيًّا دقيق الصفحات والأسانيد بها. لمن أراد التحقق العلمي الدقيق من رواية بعينها، فليرجع إلى أصلها في هذه المصادر مباشرة.